رسائل الحب والحرب بين القدس و دمشق

(عتبات الياسمين)

رواية

راما جمال

مكتبة سر من قرأ

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

رَسَائِلُ الحُبُّ والحَربْ
بَيْنَ القُدْسِ وَدِمَشْق

عَتَبَاتُ اليَاسَمِينْ

لن ننسى تشرين .. 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

راما جمال

رَسَائِلُ الحُبِّ والحَرْبْ بَيْنَ القُدْسِ وَدِمَشْقْ

عَتَبَاتُ اليَاسَمِينْ

رواية

مكتبة
t.me/soramnqraa

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2020 م - 1442 هـ

ردمك 978-614-01-3146-0

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

11 11 2023

مكتبة
t.me/soramnqraa

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

تصميم الغلاف: **أيهم الأسعد**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

إلى ذلك الطِفل الذي نَحمِلُهُ ونَحتَضِنُهُ في قُلُوبِنَا..
في يَقَظَاتِ أحلامِنَا.. وحُرِيَةِ خَيالاتِنَا..
ذلك الطِفل هو حِمايَتُنَا وملاذُنا الآمِن..
إلى ذاك القَلب الذي نَبحثُ عَنهُ ويَبحثُ عنَّا..

المحتويات

من القدس إلى ماردين مرورًا بنابلس ودمشق وحلب 9

دمشق.. ندبةٌ في الروح..... 11

مُخَّلصُ الآلام.. في سمائك يا دمشق..... 13

بيت جدتي الدمشقي في الحي القيمري..... 15

جَدَّتي.. ذاكرة وإرث الحبّ والوطن 18

"يعرُب".. عاشقٌ وثائرٌ من حي المهاجرين وملاذ الخائفين..... 23

الموت والفراق لا يستأذنان أحدًا.. ولا تَعِي حقيقتهما إلا بالتجارب 26

صباحات دمشق اليتيمة..... 29

صندوق جدتي الخشبي المُصنَّف.. ورسائل قَيْدُ الانتظار 32

الرسالة الأخيرة من ثُريا إلى يَعرُب..... 35

مُحي الدين بن عربي في دمشقنا.. ونبوءة الرومي..... 37

من باب شرقي.. باب توما.. إلى الجامع الأموي "موزاييك دمشقي وحمامٌ زاجلٌ أموي"..... 46

حكواتي النوفرة.. "الحُبُّ الذي تنهيه الأقدار لا يُعَوَّلُ عليه"..... 55

نَفْرَحُ لفرحهم رغمًا عن كل شيء.. من دون التفات "قهوة وبَحْرة"..... 59

أقواس دافئة تَعلو ممرات الزُّقاق "قناطر عِرنِي كتفك" 64

"سافرت خارج الزمن.. إلى مدينةٍ كان اسمها حلب" 67

"مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ.. وما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ" 76

"زهر البرتقال.. زهر الليمون" 80

"الليلة الأخيرة.. الرسائل الأخيرة.. في دمشق" 84

"رسائل الحُب والحرب.. بين القدس ودمشق" "الرواية التي لم تكتمل" 93

"رسالة من ليلى.. برلين المدينة المُوحشة" 97

"الحُب الذي يُفاجئنا إذا ما أَقْفَرَ القلبُ" 100

"عهدٌ جديد" 106

"سَأخطو على تراب وطني فلسطين" 109

"عين كارم" 115

"سَنُصلي في أقصى القُدس" 121

"غدًا نلتقي" 127

"الرواية التي لم تكتمل بعد" 136

"الذاكرة المفقودة.. نهاية الرواية" رواية شمس القدس 140

"قلادة وموزاييك دِمَشْقُدْسِي" 143

"في القدس سنلتقي.. ما تَبَقَّى لنا" 150

يَعرُب يَتَطَيبُ بالياسمين الدمشقي 158

من القدس إلى ماردين مرورًا بنابلس ودمشق وحلب

شتاء وربيع 2020

كان نقاشُهُما حول ترتيب جدول تواريخ وأماكن حفلات توقيع روايَتَيْهِما معًا.. رواية "شمس القدس" ورواية "رسائل الحُب والحرب بين القدس ودمشق".. في كلتا الروايتين كان العجوز تائهًا، وفي "شمس القدس" كان ذاكَ القَبَسُ من النور الذي جاء بها من دمشق إلى القدس مرورًا بجبل اللويبدة، وحلب، ونابلس.. ليَجِدَها وتَجِده من بحثٍ غير مُسبق العلم لكليهما، فكان مُسبقًا بشعور الحنين وصلًا بلا ميعاد، قرأتْ روايته حتى الختام.. التمستْ ببصيرتِها وهج الضياء في صحراء التيه.. كان عجوزًا ضالًا، وهي لم تعرفهُ من قبل إلا شابًا لم يعجز في حكاية وذكريات ثُريا..

اقترحتْ عليه أن يكون حفل توقيع روايته وروايتها معًا، بدايةً في مدينة القدس، ومن ثم نابلس، ودمشق، وحلب وإنتهاءً في اللويبدة في عمان.. وافقها الرأي، واقترح عليها أن يكون حفل التوقيع في مدينة واحدة تجمع المدن الأولى الأربع السابقة.. نظرت إليه نظرة المُتَوَسِّلة،

أن يكون جَدِّيًا بلا مزاح، وبلا الخوض في متاهات الفهم.. فأجابها بثقةِ الرحالة العارف ضاحكًا: "والله أقولُها جادًا.. مدينة ماردين.. مدينة من المدن المُباركة في أرض الأناضول، مدينة جليلة في امتدادها عبق وسحر شامي يتأصل من بلاد الشام وقلبها القدس الشريف المُبارِكُ وما حولها.. لن أتحدث عنها أكثر، ستكون وجْهَتُنا الأخيرة في هذا الجدول الزمني.. ستكون هديتي لك أن تنعمي بالخَطْو والإبحار بخيالاتك فيها.. ستُذهلين بسحرها وأعدك بذلك.. سِحرٌ سيتعدى حدود خيالاتك النَّدِية وجنون طفولتك.. سنذهب بالطائرة من إسطنبول إلى ماردين.. لا تنسي أن هنالك حفل توقيع أيضًا في إسطنبول الأناضولية.. فالموعد قائم وقريب"..

دمشق.. ندبةٌ في الروح

خريف 2018

لا أعلمُ كيف؟ ولِمَ؟ ومن أينَ بدأ العشق في قلبي، لمدينة الحُبِّ والحربِ "لدمشق"، أزقة رَسَمَتْ طُرقًا في قلبي، وفتحتْ على جُدرانه أبوابًا تسوقُني إلى باحات المنازل الشامية، إلى بيت جدتي الدمشقي المُعَتَقِ بالأصالة والإعتزاز، لأجِدَني راقصةً برُوحي المُتعبة حول بُحَيْرَتها مُسدِلةً خصلات جدائلي على كَتِفيَّ الخجولتين، مترنمةً على صوت جدتي ثُريا التي استحضرتُ روحها لتجلسَ على كرسيِّها الخشبي المُصدَّف والشالُ اللؤلؤي يلتَفُّ حول شعرها الأحمر الحِنائي ووجنتيها المتوردتين، ارتَسَمَتْ الإبتسامة على خَدَّيها فرحًا بفتح بوابة بيتنا الدمشقي من جديد، والقهوة تُعقَدُ على النار ليَطيب المجلس برائحتها، بدأتْ بغنائها بـ "يا مال الشام" وبصفقات يديها المتجعدتَيْن المتلازمة لحركة مياه النافورة لبُحَيرتنا المتباهية وبرقصتي "رقصة ستي الشامية"، وثمرات شجر السفرجل والليمون والبرتقال تبتهج بِنَثْرِ رائحتها ليكتمل المشهدُ المَهيبُ بجدتي ثُريا وجدي يَعرُب.

رحيقٌ ياسَمينيٌّ يَنْبَعثُ من تلك الشجرة المتألقة بفروعها على جدران الحجَر العتيق المتأنق بلونه الوردي، والأبيض، والرمادي

المُتتابع بترتيبه فنًا أصيلًا، مُتسَلِلةً فروعها إلى غرفتي في الطابق العلوي لتَنْثُرَ عِطرها المُتبقي من حنين الماضي في فراشي وبين أوراقي، وأحلامي، وصور الذكريات الهَنية. سِحْرُ الفَجْرِ يستيقظُ بي عشقًا مناديًا بحَيَّ على الياسمين، ومآذنُ الجامع الأموي المُجاور لِحَيِّنا تُعانِقُ السماء، تَستنجد رحمةً وسلامًا بحَيَّ على الصلاة.. حيّ على الفلاح، وأكاد أسمع عُكازة جدتي تطرُق الأرض بِخُطواتها المُتَأنية متهيئَة للوضوء والصلاة ولدعواتها الحانية في أرجاء حديقة البيت الدمشقي.

أيُّ حُبٍّ سَحَرَني لهذه المدينة العتيقة؟!

وأيُّ طريقٍ سَأسلُكه أنا وجدي يَعرُب لنُحلق في سَمائها ونسير في أزقتها في حي القيمرية، ونطرق أبوابها لنلقي التحية على جيران حيِّنا الصادقين الطيبين، ولنخيط من ياسمينها عقدًا لكل عاشقةٍ وعاشقٍ لجمال الكون..

طريق الحب، أم طريق الحرب؟!

طريق الوفاء، أم طريق الغدر والكراهية؟

طريق عابقٌ بالياسمين الأبيض، أم طريقٌ إلْتَحَفَ برائحة الموت وأشلاء تَشَبَّثَتْ بعبق وحنان ودفءِ ترابك يا شام؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

مُخَّلصُ الآلام..
في سمائك يا دمشق

2011

وشاءتْ الأقدار الواقعة بأنانية وجشع البشرية أن تُغادر وتُرفَعَ روحك يا دمشق إلى سماء السلام حيثُ رُفِعَ سيدنا عيسى المسيح سلامًا وخلاصًا من خطايا البشرية، وأيُّ مُخلصٍ لآلام شهدتها يا دِمَشْقُ وقد انحسر السمع والبصر وانحصرتِ الذاكرة بأهوال الشر وطواغيته وضحاياه من أبنائك وبناتك؟!

ما عاد لروحي وصلٌ يصل روحك يا شام، وما عادت الأزقة ترسم طريقًا إلى قلبي ولا أبوابًا أطرُقُها لأعيش عشقك مع جدتي وقطة المنزل وبحيرتك السحرية. ما عُدتِ يا دمشقُ إلا جسدًا مُنْهَكًا بلا روح، فروحك رُفعت إلى سماء المسيح، والحكايات الهنية الطيبة تمزقت وسط حكايا كل مفجوعٍ بالضنى والحبيب ومُهَّجرٍ غريقٍ ومغتربٍ أسيرٍ، وبقايا إنسانية ممن هُتِكت أرواحهم وسط زنازين الظلام واللامعقول من الشرور.

لا أجد جمالك وسط الجُرم والدم المشهود، ولا عشقك، إلا في ذكريات من عاشوا فيها بكل معنىً للكرامة والعزة والحرية، ذاك الزمان

الثريُّ عشقًا بشعر القباني ودرويش وروايات الكنفاني، ورسومات ناجي العلي، ورايات ثوار التحرير في وجه الاستعمار الفرنسي ونصرةً في صفوف المقاومين لفلسطين وقدسها، ونصرةً لكل مقهور وأسير أينما استغاثوا وصرخوا..

يا شام.. وإن فتحتِ الطُرُق سبيلها وإن وطأت قدماي أزقة حاراتك العتيقة يا دمشق، وإن لامستُ جدرانك الحانية والدافئة، وإن احتضنت ياسمينك وقَبَّلْتُه زهرةً زهرةً فلن يَروي ويُشفي كل ذلك شغفي العتيق لعشقك وللقائك، وكيف ألقاكِ وأنتِ في حداد الفجيعة والصمم من صراخ المُتألمين والعمى من غياهب ظلمة مشاهدات المُتَعَذِّبين. لكن أليس من حقي عليك يا دمشق ومن حق كل عاشقة وعاشق للشام أن تُداري ألمك بكل ما فجعك، ألستِ أنت العريقة والعتيقة والحضارة والحرية والحب والعزيزة، ألم تتعاقب عليك السنون بالفجائع والدم والقهر؟!! وقاسيونك يمدُّ البصر وقد أبى إلَّا الشموخ مودعًا أرواحًا إرْتَقَتْ وأرواحًا تنتظر الخلاص إلى السماء، وياسمينك لا يزال يزهر رُغمًا عن كل شيء.. فالأرض هي الأرض.. والتراب الأصيل هو التراب ذاته.. ونهر بردى يجري في عروقك وتحت سمائك المهيبة، والعاشقون يطوفون في حضرة البحث والإرتقاء والوصل.

فكيف السبيل إليك يا دمشق؟

بيت جدتي الدمشقي
في الحي القيمري

نيسان 2006

في دمشق.. حي القيمرية.. حيثُ بيت جدتي الدمشقي.. وبيت طفولتي وصندوق أسراري، وحيث تفتحت أزهاري.. بيتٌ عربي أصيل وسط حيٍّ عريق في المدينة القديمة المُتَسورة بأبوابها السبعة أو العشرة.. المُتجلية بتعاقب الدهور والقصص التي ترويها أرواح من عاشوها ومن مرَّوا فيها كرامًا، أو أذاقوها حروبًا ودمارًا في جوف بيوتها، وأحيائها، وأزقتها، وأسوارها، وأبوابها التي لا تزال شاهدة على ذلك..

يُقال إن سبب تسمية حي القيمرية بهذا الاسم يعود لشيخ عاصر الحي أيام الفتوحات الإسلامية اسمه قيمر، وهنالك مقولة أن اسم الحي يرجع لتشييد المدرسة القيمرية في الحيّ خلال القرن السابع على يد ناصر الدين الحسين بن عبد العزيز القيمري الكردي وهو أمير أيوبي، وصف في كتاب "الدارس في تاريخ المدارس" للمؤرخ عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي بأنه "بطل شجاع يضاهي الملوك في مركبه وتجمله وغلمانه وحاشيته".. لكن.. أيًا كان السبب في التسمية.. المهم

أن يكون لهذا الحي قدر الوجود باسمه وبدفئه، وحكاياته، وبشهادته على الأرواح الكريمة التي عاشت فيه.. والأهم أني عشت فيه وترعرعت في حضن جدتي في بيتها الدمشقي الأنيق.

حي القيمرية كالقلب النابض في روح المدينة الدمشقية العتيقة، حيث يَحُد الحيَّ بابُ توما والجامع الأموي، ومنطقة حي النافورة، وحي الجورة، وشارع مدحت باشا، وتمتد الطرقات الرحبة والمرصعة أناقة وترتيبًا هندسيًا بحجارتها البازلتية الرمادية التي أتمهل بالخطو بحنوٍ على أرضها لعَلّي أخطو خَطْوَ العابرين الكُرماء من الأزمان العابرة، لأُلقي سلامي وأُحَلِّي ناظريّ على نوافذها التي تتلاقى من بيوتها العربية مستندةً متقابلةً على أكتاف جدرانها الشامخة، والشرفات تتقارب مستمدةً الأنس والوئام، والبيوت تتفتح بأبوابها الضيقة المدخل الواسعة بمنتهاها مرحبةً بساكنيها إلى قلب باحتها حيث الحديقة، والإيوان، والنافورة المتباهية بموسيقى مياهها التي لا تنضب عن العطاء، لتتجلى بعطور شجر الليمون، والبرتقال، والياسمين، والنارنج، والبيلسان، والريحان، والخُزامى مُتَهَيِئَةً لاحتضان أرواح أهلها بأجيال متعاقبة بولاداتهم وحكاياتهم حتى فراقهم، ومُتَسَوِرَة بجدران عالية مطرزة بالنوافذ المُطلة على الباحة لتحتضنهم أمنًا وحبًا من دون نهاية، ومن دون مقابل، وبلا قسوة أو جفاء.

في كل بيوت الكون حديقة خارجية.. إلا البيوت الدمشقية في قلبها مُهجات الجنات بزهورها، ومياهها، وحجارتها المتأنقة، وكما قال الدمشقي نزار قباني: "هل تعرفون معنى أن يسكن الإنسان في قارورة

عطر؟ بيتنا كان تلك القارورة".. وأنا روحي كانت تتعطر في بيت جدتي عطرًا لا ينطفئ أثرًا ولا وجدانًا ليتسلل إلى عروقي حتى نبض قلبي، ويترك في مُخيلتي وذاكرتي أصالة لا تُنسى، عِطْرٌ يضفي على تفاصيل حياتي بطولات وروايات حُبٍّ لا نهاية لها، فهو كالغمرة التي رفعتني إلى السماء النقية ولا رجوع من بعدها إلى طين الأرض المختلط بكل مجهول بأقدارها المؤلمة التي فجعتني في أعوام الحداد القادم.. الذكريات كانت كلها تتعطر بالياسمين وصحن بيتنا الدمشقي.. ولا شيء يمكنه أن يَمْحو من الذاكرة قصص الحُب في حضن الوطن.. مدينتنا.. حينا.. بيتنا.. ومن نحب.. وفي المقابل لا تخلو الذكريات من صراعات البقاء في حضن الفجائع والشقاء القادم من كل صوب..

مكتبة
t.me/soramnqraa

جَدَّتي.. ذاكرة وإرث الحبِّ والوطن

نيسان 2008

ذات صباح.. من صباحات دمشق.. ارْتَقَى آذانُ الفجر في مسمعي تزامنًا مع صوت عكازة جدتي ومياه النافورة المتراقصة من بحيرتنا، تفتحت عيناي على ضوء القمر الذي يتلألأ على الياسمينات المُتسللات المتأنقات على نافذة غرفتي ومنعكسًا على مُحياي لينتابني خجل من انكشاف سرٍّ ارْتَسَمَ أمام بصري، تململت قليلًا.. ولكن سرعان ما استفقتُ بانشراحٍ يسري إلى قارورة عطري في باحة المنزل، وإلى صلاةٍ تنهيها جدتي بدعواتٍ فجرية. وقفت أمام نافذتي المُطلة على باحة قارورتي العطرية وجدتي تجلس على كرسيها الخشبي منتظرةً أذان الفجر الثاني مسبحةً ناظرةً لي بابتسامتها بدعوةٍ منها وانتظار، أصبحت عليها بابتسامتي الأولى مع كل بزوغ فجر في السماء ومع نور وجهها المُتَوَرِد.

غادرت نافذتي، ومعي بعضٌ من رحيق الياسمين الذي علق على وجنتي، وتسلل عبقًا إلى قميص نومي الأبيض، متجهةً إلى الدرج الذي يرتقي بي نزولًا إلى قارورة عطرنا وملكة بيتنا "ثُريا"، تقبيلي يد جدتي

صباحًا، وتقبيلها خدي الذي يترك أثرًا من رائحة أنفاسها الندية التي لا تزول ولا تُنسى، ووضوءٌ من بحيرتنا المزينة بأوراق الورد، وحبات البرتقال والسفرجل التي تطفو على سطحها، وكأنها كواكب تطوف في مجرة تُراقِصُها مياه النافورة المشاكسة.

بدأت جدتي صلاتها تَؤمّ بي بصوتها الحاني الجَهور، القطة شامة بجانب قدميْ جدتي حانيةً رأسها منتظرة انتهائنا من الصلاة.. قطتنا ذكية وحنونة أيضًا، أتْمَمْنَا الصلاة بدعوات جدتي التي تحيي بها روحي تسبيحًا واستغفارًا وأماني في سرّي وفي علني. لدعوات جدتي أثرٌ في كل شيء في قلبي، وفي أشجار وزينة حديقتنا، وفي سكون القطة شامة، وفي سكون السماء، وفي وهج ضياء القمر، وفي كل ما يحيط به البصر حتى تتجلى رقيًا بالبصيرة.

تنبهت القطة شامة من اتمامنا من صلاة الفجر، نظرتْ إلى جدتي وقفزت بِحُنو لتجلس ملتفةً في حضنها وبين كفيها لتداعبها، أمَّا أنا فَحَانَ الوقتُ لِأُعِدَّ قَهْوَتنا، وأرتب الفناجين بعقد الياسمين الذي لا غِنى عنه لإضفاء صباحات دمشقنا الياسميني، وتُريا ذات الهيبة والوقار عروس بحيرتنا تبدأ بارتشاف قهوتها بتمعُّن وكأنها تصنع من كل رشفةٍ حول شفتيها حديثًا وذكرى من ذكريات صباها، لتتبعها أخيرًا بتغنيها حنينًا وشوقًا لماضيها "هالأسمر اللون هالأسمراني.. تعبان يا قلب خيو وهواه رماني.. يا بو عيون وساع حطيت بقلبي وجاع.."... أما عن قهوة المساء فالعود المُصَدَّف كان جليسنا لتحتضنه وتترجم صوت أوتاره بدندنات أناملها بغنائها "بعدك يا هالطير بتيجي وبتروح توعي بقلبي الشوق وتزيدو"... ما

سرُّ الشوق والحنين الذي يُذكِّر جدتي ثُريا بصور خفيّة تعيشها في سرها ومع كل ما حولها من ذكريات.. تجول في مخيلتها بعيدًا مع كل رشفة قهوة.. مع كل تفاصيل حياتها؟!.. نعم.. حبها الأول.. لذاك الشاب الوسيم الأسمر ذي العينين الخضراوين من حي المهاجرين.. جدي الذي انقطعت أخباره، وأصبح الأمل يتيمًا من كل محاولات البحث عن مصيره المجهول، جدتي التي تعدت السبعين من عمرها إلا وأني لا أرى فيها إلا عاشقة ثلاثينية يتيمة ومليئة بالأمل والانتظار لجدي "يَعرُب"..

سألتها يومًا: "جدتي ما حالك وجدي لا يغيب برهةً حاضِراً في الذاكرة في كل نفس من أنفاسك؟! وما سرُّ الدموع التي لا تنضب؟! أليس الزمن كفيلًا بالنسيان؟!"

أجابتني بهدوئها وبتنهيدة أخرجت معها ألمًا ممزوجًا بشوق وهي ترتشف فنجان قهوتها المسائي:

"هل سمعت ببكاء الصبر؟

بكاء الصبر هو أن تبكي لا ألمًا بما وقع أو لم يقع بأقداره سبحانه، بل ألمًا بما خالفته التوقعات البشرية حتى تتجلَّى الحكمة لك مع كامل رضاك ويقينك بالخير الذي لا نعرف ماهِيته.. أو حتى يأتينا اليقين.. بكاء الصبر ذاك الحنين الذي يترك ندبةً في القلب.. ووحدةً وسط الأحباب.. وملًا وانطفاء في وهج أجمل التفاصيل في الحياة.. فقط اطمئني.. أنا بخير.. نوبات الشوق المستندة إلى صبر وأمل.. روتيني اليومي.. وقوَّتي في استحضار روحه مع كل صباح، وما هي إلا إيذانٌ لي بالحياة في كل يوم جديد من دونه"..

طيلة حياتي مع جدتي ثريا كان جدي يعرب يجول حولنا وفي جلساتنا وسَيِّدُ أحاديثنا وضحكاتنا وأحزاننا، في كل تفاصيل حياتنا، في كل أغنية من ألحان الزمن الجميل، وفي كل رقعة وجدار من البيت كان لـ "يعرب" أثر تستذكره جدتي وكأنها تستحضر روحه وتأنس به حقًا. لم أتخيل يومًا جدي كهلًا، فصورته الأخيرة في مخيلة ثُريا عندما كان شابًا ثلاثينيًا قويًا وعاشقًا لها.. كان آخر لقاء بينهما ووالدتي في رحم جدتي في شهرها التاسع، الرجل المُقاوم الشجاع الذي غابت أخباره بل انقطعت إثر مشاركته في حرب الأيام الستة، حرب النكسة، حرب حزيران 67 ضد العدوان الإسرائيلي، لم تكن الخسارة الأولى لجدتي بفقدانٍ مجهول لـ "يَعْرُب" بل تعدى ذلك الخسارة العربية والخيبة والفجيعة بالوطن من قبل العدوان الإسرائيلي.. في عام النكسة..

بجانب انتظار وبحث جدتي عن ريح جدي يعرب، كان هنالك عالم انتظار وأمل لا ينضب ويُحرك قلوب زوجات وأمهات وأخوات يقفن على قدر الصبر والبحث وإيجاد الخبر اليقين بأحوال من فقدوا في هذه الحرب، الأمل الذي يبحث عن ثلاثة احتمالات؛ فإما احتمال الشهادة وتوثيق حق وصدق يضمن أن ذاك الشهيد قدْ دُفِنَ في بقعة أرض معلومة، فربما يكون في إحدى المقابر السرية للشهداء، فهذه المقابر تكون ذخرًا للاحتلال بشأن مساومات مستقبلية، وإما العودة من بعد عقود الغياب مع ما تبقى منهم وهذا الُحلم معجزة وهبة ووعيد الصابرين، وأما الاحتمال الثالث فهو العذاب المُقيم إن كانوا أسرى حرب في غياهب الظلام في السجون السرية الصهيونية منذ تلك النكسة

الإنسانية، ليكون الأسرى هدفًا للمساومات المستقبلية أيضًا.

جدتي التي سبقها منذ طفولتها فاجعة ووداع غير موعود باللقاء من أبيها، حين التحق بالبطل عز الدين القسام في فلسطين ضد الانتداب البريطاني، حيث طوقتهم القوات البريطانية، وغاب والدها في المجهول رغم محاولات البحث في فلسطين. يبدو أن الابتلاءات مجهولة المصير لازمتْ جدتي طِيلة حياتها، الانتظار الدامي الذي لا وجه له، صبرٌ ممزوج بغصة الروح والشوق، بيت ثريا الذي تعبت أبوابه من انتظار طَرقِهم إيذانًا بقدومهم العزيز. تمر السنون سِراعًا وما زال جدي ووالد جدتي في صورة القادم من ذاك الزمن المجهول بكامل شبابهما ووسامتهما وبلباسهما الوطني المُقاوم الملطخ بالغبار الثمين، وبدماءٍ ضَحَّت من أجل الوطن والكرامة والحرية، حالُها كان فيه تحدٍّ للزمن وكسرٌ لمنطق اليأس والهرم، فقط في مخيلة جدتي أجد عالمًا آخر أكاد أصدقه وأقع في فخ اللامعقول الذي تنتظره وأنتظره معها، لكن يكفيني شرف العيش في كنف عاشقةٍ صابرةٍ ومقاومةٍ مؤمنة كجدتي.. ثُريا..

"يعرُب".. عاشقٌ وثائرٌ من حي المهاجرين وملاذ الخائفين..

إلى سفح جبل قاسيون توافد المهاجرون منذ بداية القرن التاسع عشر من مختلف بقاع الأرض، من الشراكس والأتراك والكريتيين وغيرهم، هربًا من الحروب وبهجرات مختلفة الأسباب في أواخر القرن التاسع عشر، ليكون جبل قاسيون ملاذهم الحاني والآمن لحيٍّ سُمي بالمهاجرين نسبةً لهجرتهم، حيث كان الاسم القديم "تحت الردادين" التي كانت ملكًا لآل مؤيد العظم، وكانت قبلها ملكًا إقطاعيًا لبهاء بك في عصر الوالي العثماني حمدي باشا. فيعود الفضل في الهجرة إلى الوالي ناظم باشا آخر ولاة العثمانيين على دمشق، حيث قام بمساعدة المهاجرين لتأمين سكنهم والحفاظ على حياتهم في سفح قاسيون الشامخ، كما بنى لنفسه قصرًا كبيرًا فيها هو نفسه قصر المهاجرين في الوقت الحالي، وإسْتَقَرَتْ عائلات تركية في هذا الحي حتى بعد انتهاء الحكم العثماني، وكانت إحداها عائلة جدي "يَعْرُب"..

دمشق.. الأرض الحانية.. والملاذ الآمن للمهاجرين والخائفين.. أرض الياسمين والحنين.. ومُستَقَرُّ البطولات والكرامات ضد كل ظلم

وطغيان.. لا نصبٌ ولا تعبٌ ولا راحةٌ لأرضك يا شامُ.. وفيك الحرية التي تحلق رُغْمَاً عن كل البشاعة التي تحاول طمس بقاءك الأزلي في الماضي والحاضر والمستقبل.. وقاسيونك لا نصب فيه ولا وهن، وفيه وعود النصر السامية.

يَعْرُبْ.. جدي الذي يرتسم في ذاكرتي التي أوحتها جدتي لي في مُخيلتي، ذاك الشاب بلباسه الثوري ضد الاحتلال الفرنسي، ليواصل بعدها مقاومته ضد الاحتلال الصهيوني، البطل المجهول والعاشق لدمشق المُتغني بغزله لجدتي بمقامات وقدود العشق الحلبية والشامية، ممشوق القامة، قمحي البشرة، عريض الجبين وعاقد الحاجبين، أخضر العينين، القائد المثقف في الصفوف الأولى لمظاهرات المطالبة بالحرية لطرد الاستعمار الفرنسي، صوت جَهور ببحةٍ مميزة تلقي الطمأنينة والثقة بصدقٍ على وقْعِ قلوب ووعي السامعين المُنصتين، يَعْرُب الشاب الدمشقي من أصول العائلات التركية التي استقرت في الشام في حي المهاجرين من بعد إنتهاء حكم الدولة العثمانية..

أما جدتي.. أو الشابة الحسناء ثُريا.. المُرابطة في صفوف الثائرين والثائرات.. وحلقات العلم والذكر في جامع محي الدين بن عربي والجامع الأموي، والمرابطة لنيل العلم ونشره في بيوت الشام لتوعية النساء في حقهن في الحرية وإقامة الشجاعة في قلوبهن ضد الغزاة المحتلين، جدتي المقاومة بالمخطوطات التي تنظمها وتَخُطها بخط اليد لتنشرها سرًا مع صديقاتها بين أهالي الشام إيذانًا بالثورة ضد ظلمٍ يطغى، وبحلم الاستقلال من كل قيد واستعباد وجهل...

يعرب وثُريا، قلب وروح معًا، في زمن الحب والحرب، والثورات ومسيرات الحرية، والليالي القمرية التي تتلألأ في كتابة الرسائل بتلك الكلمات التي تفيض بخلوة كل منهما خجلًا من البوح بحضرتهما.. العيون تتبادل الشوق.. والليالي تبعثها في جلوات الوصل وللقاء الأرواح الخجلة من لحظات القرب في صفوف الثائرين.. والأجمل في كُل هذه التفاصيل أنَّ في عُنُقِ كُلٍّ منهما قلادةً بغطاءٍ عتيقٍ لامع يخبئ في جوفه صورة وجه الجميل والجميلة بإطارٍ أنيق، وأما على معدن الغطاء الخارجي فقد نُقِشَ اسم كُلٍّ مِنْهُما.. وتاريخُ لِقائهما..

الموت والفراق لا يستأذنان أحداً..
ولا نَعِي حقيقتهما إلا بالتجارب

جدتي الحضن الدافئ الذي احتواني بعمر العشرة أعوام من بعد وفاة والدي ووالدتي بحادث سيارة من الشام إلى الأردن، أثناء عودتنا إلى منزلنا الكائن في جبل اللويبدة في عمان موطني الأول، كنت صغيرةً جدًا وثريةً بالتجارب المُبكرة، كانت حقيقةً قاسيةً أن أُختزَل من حضن عائلتي وأن ألملم قِواي كطفلة غضّة القلب لصياغة الواقع المحتوم ومحاولة استيعاب معنى الفراق بالموت. أذكر تمامًا لحظة اصطدام الشاحنة بسيارتنا، ضوء قوي ارتطم بالفراغ وملأ بصري بنور أبيض رفعني إلى السماء بشهقة استنجدت بها والديْ بصرخة تراودني إلى الآن في مناماتي، وبعدها أذكر مشهد جدتي التي أحاطتني بنظراتها الخائفة التي تترقب وتنتظر إسْتِفَاقَتِي من بعد غيبوبة في غياهب الزمن الذي تعدى العشرة أيام وأحسبها عمرًا كاملًا لا نهاية له، كان زمنًا طويلًا في اللامكان، كنت كالريشة الساكنة، السكون والتجليات التي عهدتها في تحليقي لم تكن أضغاث أحلام بل حقيقة في ذاك الزمن واللامكان المنير، كان النور يغدق بي وإذ بِأمي وأبي يحلقان معي ويسيران بي إلى بوابة الأمان، وفجأةً إذ بالنور يشتد بريقه وأنا لا أكاد أن أرى بوضوح،

ووالداي يُحلقان بعيدًا للأعلى راحلين مع وهج النور، وأنا أَدنو سقوطًا حانيًا للأسفل، صرخت.. شهقت.. أفقت.. وإذ بنور وجه جدتي ثريا التي استقبلتني من السماء على هذه الأرض..

محظوظة ليكون لي أكثر من وطن وذاكرة أنتمي إليها بين جبل اللويبدة ونابلس ودمشق، بدايةً من طفولتي في عمان حيث الموطن الأول بمولدي فيها، وبسفري مع والدي إلى الموطن الأصيل في بيت جدي وجدتي في مدينة نابلس "دمشق الصغرى" في حارة الياسمينة في فلسطين، ليتم تسجيلي ضمن هويته الفلسطينية "لم الشمل" لأضمن حق المواطنة الفلسطينية التي ستضمن لي حق العودة والعيش وزيارة فلسطين كمواطنة فلسطينية حيثما وكيفما شئت، ليكون من بعد كل ذلك فاجعة فراق أمي وأبي. وأما النصيب الأكبر من تفاصيل طفولتي وربيع شبابي فكان في دمشق الياسَمين، في حي القيمرية، في كنف ثريا الوطن الأكبر التي وهبتني القوة لاستيعاب الفجائع المبكرة التي لم تفرق بين صغيرٍ وكبير، لحكمةٍ وهبة لا يدركها إلا كل ذو حظٍّ عظيم، ثريا التي وهبتني المعنى الحقيقي للحُب والإيمان والعطاء رغمًا عن كُل زيف وقبح واللامنطق من الأحداث والصراعات الدنيوية، حكمتها وأساس تربيتها لي كانت كأسوار دمشق السبعة أو العشرة الحامية في زقاق قلبي وروحي المكتظة بذاك الجمال الذي زرعته وسقته من وحي الله وسمو السماء.

ما سِرُّ جدتي ببركتها.. وقوتها.. وهيبتها.. وجمالها.. ورقيها وحكمتها؟! تجاعيد وجهها التي تختبئ وراءها تلك الجميلة الثلاثينية،

وبريق عينيها البنيتين يعيدني إلى عقودٍ عايشتها جدتي منذ انتهاء حكم الدولة العثمانية ومرورًا بالاحتلال والحرية من الاستعمار الفرنسي، وليس انتهاءً بنكبة ونكسة فلسطين.. لكن ربما أرغمتها الفجيعة الإنسانية التي تغرق بها الشام الآن على تذبذب ذاكرتها فجأةً، رحمةً بها وخلاصًا من حملٍ ثقيل لن تستطيع جدتي تحمله أو حتى استيعابه بما يجري خارج منزلنا الدمشقي من هتك الحرائر وانتهاك الإنسانية بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على مخيلة أو قلب بشر، أو ربما كانت كذبةً وهروبًا أو تجاهلًا من الواقع الذي لن يتحمله عاقلٌ بضمير حي وقلب عاشقةٍ وبإنسانية من دون حظوظ دنيوية دنيئة..

لكن.. ماذا عني يا جدتي.. أليس لحكايتي معك بقية من صباحات دمشق؟! وماذا عن أسراري التي أسررتها لك؟! وأحلامي التي أودعتها بين دعواتك؟! وفساتينك التي سأرتديها في يوم فرحي؟! ألن ننتظر استحقاق الحلم سوية؟! ألم نعد نتهامس معًا تجليات العاشقين وكأنك الصديقة بفارق أعوامٍ إخْتَزَنَتْ حكايات الأميرة العاشقة لجدي الشاب "يَعرُب" من حي المهاجرين؟ جدي الذي لم ولن تنتهي قصتك معه، جدي الذي لم ولن يهرم، ولن تنضب رسائلك التي ما زلت تكتبينها وتحتفظين بها في صندوقك الخشبي المُصَدَّف المُخملي رغمًا عن ألم الصبر بانتظار المستحيل والمجهول واللامعقول؟!.. ما بال ذاكرتك تبعثرت؟! أكان رفضًا للواقع أم خوفًا من الجنون والطغيان الأسود القميء الذي عصف بالشام؟! وأنا ماذا عني يا نور قلبي؟!

صباحات دمشق اليتيمة

2012

في أحد صباحات دمشق اليتيمة.. وتزامنًا مع القصف والتدمير والتهجير وكل أشكال البؤس وانتهاك الكرامات التي ضجت بها وسائل الإعلام وأفواه العالمين المُنَظِّرين والمحلِّلين السياسيين والناقمين والمعارضين والموالين، ومع كل أشكال الضجيج والصراعات من فوق الأبراج وسط الكارثة الدموية، دخلت إلى غرفة جدتي، ليست كعادتها منذ بدء الأحداث المُرعبة، سكون غير مريح، ومكوث في جوف السرير غير محمود، وهجران لحديقتنا وصباحاتنا المعتادة قبل ذاك الحد الفاصل من الزمن الذي يشل الوعي حتى إدراك الحقيقة الواقعة. لا شيء يُفسر التناقض اللامنطقي ما بين قبل وبعد هذا الزمن الفاصل الذي قلب الموازين. جلستُ على جانب السرير، نظرت إلى عينيها، بيدها اليُمنى تَحتضن القلادة المنحوتة باسم يَعرُب وبقلبها صورته البهية في أوج شبابه، سألتها بتردد واحتضنت يدي يدها اليُسرى.. كانت باردةً مرتجفةً من تخبطات الذاكرة الجميلة المشوشة بحاضرنا المُظلم:

"ستي.. أين قوتك التي كنت مفعمة بها في أوج شبابك في وجه الاحتلال الفرنسي والصهيوني؟! أليس من حق الشام عليك أن تكوني

قوية رغمًا عن كل شيء؟! شدة وستزول بإذن الله، وماذا عني؟! صباحات الشام تناديكِ"..

أجابتني وحنجرتها تجهش بالبكاء إلى أن فاضت عيناها وصرخت من صميم روحها:

"اشْتَقْتُ لِيَعْرُب سندي الذي يشد أزري، وأشتم رائحته وأسمع تمامًا وقع قدميه قريبًا في أرجاء الأرض المقدسة، رأيته في حلمي، والشام في حداد وفجيعة، والآلام تصدح من قاسيون في أرجاء الكون بأرواح انتُهكت وحرائر فُجِعَتْ، أخشى من القادم.. أخشى من وعلى الأجيال التي أنبتتها الظلمات الشريرة أن تكون نباتًا سيئًا فَيخيبُ أملُ الشام.. أخشى على الشام وهيبة الشام وأهل الشام الكرام، أخشى على الذكرى الجميلة من الحريق والاندثار"..

أستوعب ما قالته جدتي جيدًا، أن يكون الحبيب بجانب الحبيبة، أن نلقي بثقل وتعب الحياة وأهوالها على كتفٍ دافئةٍ ثابتة نتكئ عليها ونغفو أملًا وثقةً بقوة الحُب والصدق، ليس انتظارًا بتخطي ذلك الألم فحسب، بل بفناءٍ يتبعه بقاءٌ في ذاك التجلي في حضرة الوصل المُغرق بكبد الحياة، لا شيء يُعزِّي ما نحن فيه سوى الحُب الذي لا ينضب ولا يتذبذب رغمًا عن كل شيء، الحُب الذي يَحوطه الإيمان أن الله مُحيطٌ بنا والحاني على المنكسرة قلوبهم بجبرٍ ورزق الهبات من الأرواح المُحبة المتعبة...

يا شام.. كُلنا شركاء في الأحداث المرعبة التي تجري.. وجزءٌ لا يتجزأ من حقيقة المرارة التي تلونت بها تفاصيل الحياة، ولكُلٍ منا عبورٌ

وأثر نتركه في المكان والزمان، أو أن يترك الأثر فينا، تلك الذاكرة التي لا تُهمل ولن تنفك بسوداويتها التي طغت رغمًا عن كل الألوان المزهوة في ماضينا، نمضي من دون خيار نملكه بالنسيان أو التجاهل، عذابات تتلون، طاعونٌ تفشى في جسد الوطن الأم بفقدان ذاكرة الكرامة والعز، والإرادات تنضب.. تنحسر.. تُسَيَّسْ.. تتّجه للشر بأنانيتها.. أو تتجلّى للسماء إحقاقًا للحق رغمًا عن وأدها في زنازين الجهل والظلام.. لكن.. لا شر مُطلق، والخير معقودٌ في رايات أكاد أراها تُرفرف مع طيور السنونو ونوارس طرطوس وحمامات السلام في الجامع الأموي، ومزينة بياسمين الشام في زقاق الشاغور والصالحية والقنوات والمهاجرين والمرجة وساحة الشهداء وباب توما وزقاق القيمرية.. حلب وحماة وحمص.. وإدلب.. وحتى تمتد مُطوقةً السماء برسائل الحب والسلام إلى الأراضي المقدسة وقلبها القدس الشريف.

صندوق جدتي الخشبي المُصدَّف..
ورسائل قَيْدُ الانتظار

لا شيء يُؤخر جدتي ثُريا عن متابعة كتابة الرسائل الورقية المعطرة لجدي يَعرُب، لا شيء يُلملم حنينها وعذابات شوقها إلَّا بوح الكلمات الدافئة الأنفاس، ليست مُجرد كلماتٍ مرسلة، بل حديث مُثقل بالعتاب والشوق، وكأن وجه جدي بملامحه الشابة المتعبة من الفراق هو الورق الذي تلملمه جدتي حروفًا تخاطبه بها، وحنينٌ لا ينضب، وحضورٌ لروحه لا ينتقصه البعد الجسدي، حتى تنتهي جدتي من كتابة الرسالة وتستفيق على الحقيقة.. حقيقة الانتظار للمجهول.. ويقينًا بالتسليم الذي لا يحمل في طياته إلا كل خيرٍ ورحمةٍ بها من علمها وإيمانها بالله ووعده.. سَعْيُنا الذي نَظُنُّه من فعلنا المُطلق وإراداتنا التي ترتقي كالمعجزات التي لا يحاصرها إلا القدر المُحكم من رب حكيم.. وما لنا إلا الرضا والتسليم.. هذه هي جدتي الحكيمة.. تُلقمني الحِكَمَ استعدادًا لخبايا الأقدار القادمة..

قالت لي جدتي يومًا إن القوة مقرونة بالإيمان، والأقدار لا مفرَّ منها، والآلام والمصائب والفتن تكشف النفوس الطيبة من الخبيثة. فالإرادات إمَا أن تعلو وإما أن تسفُل في أقسى التجارب، وأن للمكان والزمان والخلوات تجليات وأسرارًا ونفحات يستزيد منها المؤمن بالقوة، السكينة،

الثبات والثقة التي تنفخ في روحه الطريق الآمن المُنير للسماء، وهل يضيع من سار إلى الله بِكُله؟!.. هبات من الله تتجلى في فهمٍ وحكمةٍ لأقدار الحياة، أدبًا وصبرًا وأملًا بالنور الذي يكشف الظلمة..

ليلة من كل أسبوع.. رسالة تحتفظ بها في صندوقها، ونسخة ترسلها ثُريا من دمشق إلى يعرب في القدس.. العنوان المعهود إلى لجنة المفقودين من الحروب في القدس.. لكن يكفي أن هنالك عنوانًا معلومًا في المدينة التي تجزم جدتي يقينًا أنه لا زال تائهًا في ثناياها.. إحساس جدتي لا يخيب.. وكيف يخيب وكانت المستشار الأول والأخير لجدي في كل تحركاته، فهو يثق بذكائها وحدسها الذي يصيب دائمًا بصيرة القلب ووقع القدر..

"إحسان بك" صديق جدي.. وجارنا المجاور لبيتنا في القيمرية، المُلقب "بأبو يَعرب" فلقد أسمى ابنه الأكبر على اسم صديق عمره في الشباب.. صديقه في ليالي الأنس.. في صفوف الأبطال المُقاومين.. وتحت شبابيك العاشقين.. هو كذلك يفتقد جدي، لكن من دون انتظار يؤلم، بل بذكراه التي تؤنسه في تفاصيل شبابهما معًا في السلم والحرب، أما زوجته خالتي خضرة "أم يعرب" فكانت جارة الرضا، أُحب صباحاتها التي تضفي خفة روح على حديثنا خاصةً بلهجتها الفلاحية التابعة لقرية سيلة الظهر في مدينة جنين، إمرأةٌ حُرة فلسطينية من قُرى فلسطين، كانت شقيقة أحد أصدقاء جدي يعرب وإحسان في صفوف المقاومين، فهي ممرضةٌ ومتطوعة لإسعاف الجنود الجرحى وأحدهم كان عمي إحسان، فيبدو أن إصابة إحسان في الحرب ما هي إلا إصابة قلب وحب نشهده إلى يومنا هذا، أحبها وتزوجها وزفها في قلبه إلى

الشام، لكنه لم يحتفل بزفاف معهود حدادًا على عام النكسة وقتها.

عمي إحسان كان آخر خيط وصلٍ لجدتي، كان معه في صفوف المقاومة في الحرب على الاحتلال الصهيوني، فكان آخر لقاء بينهما في المستشفى المُتنقل في القدس لمداواة المصابين في حرب 67 أثر إصابتهما إصابات بالغة، ومن بعدها جفَّت كل السُبل رغم كل محاولات ثُريا وإحسان للبحث عن يعرب.. المنظمات الإنسانية.. سجلات الوفيات من جنود الحرب المفقودين.. سجلات المفقودين.. حتى في وجوه العابرين في الطُرقات وفي الصُحُف.. في موجز الأخبار.. في كل شيء بحثٌ، وفي كل أشكال الزمان والمكان انتظار.. انتظار بامتنان.. امتنانٌ لوجود يعرب في حياة ثُريا يكفيها لتستزيد صبرًا وإضفاءً بجماله في تفاصيل حياتنا أنا والعاشقة معًا.. أنا وجدتي.. أنا وثُريا..

الصندوق الخشبي المُصدَّف.. المخملي قلبًا.. المُحتَضِنُ أسرار ثُريا برسائل الحُب والحرب بين القدس ودمشق.. العطر تشبث بين ثنايا الحروف.. والحروف أخفت شوق ثُريا في شيفرات الكلمات المتبعثرة في السطور اللامرئية.. في رسائل ثريا إلى يعرب عتبٌ لوحدتها.. ونحيبٌ لما آل بكِ يا شام من شرور من وطئوا أرضك الطاهرة.. وعاثوا فيها فسادًا.. ولكُلٍّ منا دورٌ في الفساد الذي طغى حتى هاجرت الشام أرض الشام إلى حيثُ لا ندري.. ربما إلى قاسيون ليكون غار حراء لوقتٍ غير معلوم، لعلها تُلامس السماء وتُصيبَ المُتألمين بدعواتها وقوتها التي تستمدها من وعد الله للمنكسرة قلوبهم، فَيُصبحوا على ما فاتهم صابرين مُحتَسِبين، وفي قلوبهم وهج الأمل بالعدالة واستحقاق الكرامة وطيب العيش في حضنك يا شام.

الرسالة الأخيرة من ثُريا إلى يَعرُب

نيسان 2014

عزيزي يَعرُب...

لم أصحُ اليوم قبل الفجر بساعاتٍ كعادتي لأرسل لك رسائل إلى السماء.. دعواتي أن تكون بخير.. وأن يكرمني الله برؤيتك ووصلك في حقيقتي وفي منامي، غلبني الكِبَرُ والتَعَب وتأرجحت الذاكرة إلا منك ومن فظاعة وبشاعة المشاهد التي لا تنتهي في الشام.. وكيف يكون لذكراك سكينةٌ لي وسط ذكريات وحاضر ومستقبل لا أقوى على تجاهله.. ولن أقوى على الكتابة أكثر.. لكن هنالك الكثير من الرسائل التي تنتظرك لتُحررها من مأمنها في صندوقي الخشبي.. والكثير منها أرسلتها إلى القدس التي أشتم رائحتك في ثناياها.. ما عادت روحي تقوى يا يعرب.. هل شاهدت الأخبار وعلمت ماذا حلَّ بالشام؟!.. هل قابلت المُهجَّرين قهرًا وخوفًا وظلمًا؟!.. هل مررت من مخيمات اللجوء؟!.. لكن لا أقصد مخيمات المهجرين الفلسطينيين.. بل مخيمات السوريين أهل العزة والكرامة.. يعيشون في بيوت حديدية أو خيمٍ بلا غُرف ولا حتى حدائق تتوسطها.. ويحيطُ بهم سِياجٌ حديدي.. فأحلامهم وحريتهم ممنوعة من أن تتعدى حدود الخيمة.. لكن أحمد

الله أن حدود السماء لا حدَّ لها ولهم أن يُحلقُّوا عاليًا كيفما شاؤوا فيها.. والله أنيسهم وجبّار كسرهم.. يا يَعرُب.. أَتسمعُني؟!.. هل سمعت بقوارب اللجوء؟!.. هل سمعت بما لم ولن تتخيل من ألوان العذابات.. الشام رحلت من أرض الشام يا يعرب.. لا تقتربْ من التلفاز.. ولا تقتنِ هاتفًا ذكيًا يحمل كل ما لا أريدك أن تراه.. أنا أعلم جيدًا أنك لن تُطيق الحقيقة.. ولن تستوعب الفاجعة.. وربما سَتُجَن هربًا من الواقع إلى عالم المجانين الذي منطقه أرحم وقابل للاستيعاب أكثر مما نحن به الآن..

عزيزي يَعرُب.. في رسائلي الماضية لم أذكر لك ما حلَّ بالشام من أهوال.. عندما ترجع سأحرق هذه الرسالة.. لكن أكتب لك مستحضرةً روحك لعلي ألملم ما تبقى مني من فراقك وفراق الشام من أرض الشام.. وفراق الياسمين الذي خجل وأبى أن يُتَغنى به في قصص بشاعة بني البشر.. قاسيون لا يلتفت حانيًا بدمشق منذ الجائحة، وإلْتِفَاتَتُهُ للسماء قائمة لا نَصَبَ فيها غضبًا وقهرًا وحزنًا لا ينضب..

مُحي الدين بن عربي في دمشقنا..
ونبوءة الرومي

شتاء 2005

كان يومها شتاءً نديًا أضفى على دمشق رائحةً وردية اختلطت بِرَحِيقٍ ياسميني.. انتهى الدوام الجامعي في جامعتي العريقة "جامعة دمشق" في العام الثالث.. وكان طلبي للعلم بتخصص الصحافة شغفًا لا ينطفئ ونهمًا للمعرفة واصطياد الخبرات من أهلها لا ينضب.. وطريقًا أكاد أبصره جيدًا على خُطى والدي ووالدتي.. طريقًا يدفعنا لتقديم أغلى ما نملك إيمانًا بالنور الذي يجلي الظلمة.. التضحية رُغمًا لإقامة موقف حق تشهد به إرادتنا وكينونتنا حيثما الزمان والمكان والذكريات التي تعبق أثرًا ووجودًا وعشقًا.. كنا نحيا من أجل أن نحيا، لكن أن نموت ونُقهر من أجل البقاء أحياءً شرفاء فهذا ما لم ألتقمه من تجربتي وحكمة وتربية جدتي وأمي وأبي.. كانت الطيبة والسلام والخلق الحميد أساس تربيتنا من دون وعي لمعاني الشجاعة والحرية وشرف الكرامة لا العبودية، والصبر والعزم لنيل ذلك.. وكأن ما نحن فيه الآن خارجٌ عن منظومتهم وحساباتهم وتوقعاتهم، تساؤلات تحيط بي، ما الحد الفاصل

الذي كشف الأقنعة لتتعرّى دمشق أمام الكون كله بلا نصير ولا معين إلا من ربٍّ رقيب ممهل ومن القامات العالية الشاهدة على الحق بإقامته والشهادة عليه..

أعوامٌ ثلاثة في هذا الصرح العلمي الذي يسكُنني بأحلام أرسمها بكُل ما أوتيت من قوة الإرادة والشغف.. الحق الذي سأنصره بكل وهج من كلمة حق تُقال وتُكتب وتُرفع عاليًا رُغمًا عن كُل أصوات الكذب والطغيان والظُلم والقهر.. أن أصحو صباحًا فهذا يعني أن أُعِدَّ عزيمتي للوصول إلى ناصية ذاك الحُلم لأعيش يومًا جديدًا وكأنه عيد وهدية لذاك العطاء الذي وُجدنا لأجله..

ما يحيط بي كان ينتعش بجمالية تضفي على روحي همة الحياة، وفي خطواتي من بيتنا الدمشقي إلى جامعتي قوةٌ وشجاعةٌ وخجل يعتريني، وصورته التي تجذبني ولا تغادر مُخيلتي.. كانت سِرًا أخبئه إلا من نظرات أسترقها ويلقاني فيها متلبسةً لأتراجع بعدها من دون ذنب ولوم، كان شابًا شغوفًا شجاعًا ذكيًا مُحِقًا بشهادة وتقدير من عرفوه، كان لاسمه نصيب من ذاته الجلية، كان اسمه "ضياء"، حفيد عمي إحسان "أبو يعرب"، كنت محظوظةً أن تلامس جدران بيتنا جدران بيتهم بذاك القوس الذي يحكي حكاية انتشارها في دمشق، كنت أنتظر الفرصة لفتح باب بيتنا لأصادفه بـ "صباح الخير جارنا"، وأنتظر الجمعة من كل أسبوع لترسله خالتي "أم يعرب" مرسلةً طبق طعام شهي يتنوع في كل مرة، وأكثر المرات يكون "تسقية بالسمن العربي"، كان يعلم أني أُمَيِّزُ طرقه للباب عن دون الطارقين، ويسمع صوت خطو أقدامي متراكضةً كطفلةٍ

مُتعثرةٍ لأفتح الباب وأُشرق مرة أخرى بشمس صباحه وصوته الجهور، كانَ يَعلَمُ بما أُخبئه رُغم هروبي وانكساراتي الخَجِلَة..

واعدت جدتي بلقائها في جامع الشيخ محي الدين في حي الصالحية، كان يومها نهاية الأسبوع الذي أنتظره لأقضي وقتي معها، ولتتابع جدتي أعمالها في المتاجر والورشة التي تمتلكها، كان لقاؤنا يبدأ خاصةً في مجلس الذكر النسائي في تفسير سورة الفُرقان وقتها للدكتور محمد راتب النابلسي الذي أتلقى منه أنا وثريا علوم تفسير القرآن والحديث النبوي الشريف.

ها قد قاربتُ على الوصول إلى الحي، اشتدَّ هطول المطر، وبرقت السماء بالبرق وسَبَّحَتْ بحمد رِّبها رعدًا خَشوعًا مهيبًا، إلْتَحَفَتْ القطرات وجهي بماءٍ مُنهمر، أبطأت الخطوات رغم تأخري عن جدتي، وشرعت بنظري إلى دمشق القديمة، إنعكسَتْ وابتهجَتْ الحارات العريقة إلى الحياة بلونها الأسود والأبيض وما بينهما من تدرجات، لكل لون معنى في الحياة، لون الحُب.. العطاء.. الإنسانية.. الحياة.. الموت.. الندم.. السكينة، فلكُلٍ منا لونٌ يسقطه على المُسميات والشعور والذكريات، وكانت بالنسبة إليّ ألوان الأبيض والأسود تبعث بروحي سفرًا إلى عوالم الحياة الزاخرة بالصالحين التي أشتهيها في زمان اشتاقت له سائر الأزمنة الحاضرة الغارقة باللامنطق من الشرور، أما الشبابيك المُطلة فتنبعث منها روائحٌ من كل صَوْب في الأزقة والطرقات، رائحة الطعام اعتدت على تمييزها، الكستناء وطقطقة اسْتِوائِها، الأركيلة والقهوة والأحاديث والضحكات من المقاهي العريقة، رائحة

أستحضرها من خيالات الحالمين الضاحكين والعاشقين المجانين، ودفء تُلقيه الألوان العتيقة في الشتاء الدمشقي.. وكان رفيقي ضياء الذي لا أغفو عنه بناظِرَيَّ حتى في منامي وتخيلاتي في صحوتي بصورته البهية فقط لا أكثر، خجلًا وأدبًا من نفسي..

حي الصالحية.. وتشير الروايات التاريخية إلى أن سبب تسميته بالصالحية يعود إلى أنه مع بدء الحروب الصليبية على فلسطين هاجر عدد من المقادسة من "بني قدامة" أي من أهل بيت المقدس وما حولها من القُرى، وسكنوا في منطقة باب شرقي في دمشق، ثم انتقلوا إلى منطقة سكنوها عند سفح جبل قاسيون، ولأنهم كانوا أهل صلاح وفلاح فقد سميت المنطقة بحي الصالحية، وهذا ما يؤكده المؤرخ الدمشقي والمقدسي الأصل أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل إذ يقول: "بهم سميت الصالحية لصلاحهم"، وهو ما ثبته الشيخ محمد أحمد دهمان في كتابه المحقق "تاريخ الصالحية"..

وها قد وصلت، وشهقت راحةً من تعبي مشيًا لمسافات طويلة لدى وصولي إلى بوابة جامع الشيخ محي الدين بن عربي، ويسمى جامع الخنكار أو السليمي نسبة للسلطان العثماني سليم الأول، ويقال أن السلطان سليم الأول أعاد بناء الجامع عندما رأى في منامه الشيخ الأكبر بن عربي بحر الحقائق وسلطان العارفين، حيث كان الجامع بناءً صغيرًا مكونًا من ضريح محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي ومنبرًا ومحرابًا، وبجانب الضريح قبر ولديه سعد الدين وعماد الدين وإلى اليمين قبر محمود سري باشا صهر الخديوي إسماعيل حاكم مصر،

وقبر الأمير عبد القادر الجزائري المتوفى عام 1882 م والذي نقلت رفاته فيما بعد إلى الجزائر، وأيضا قبر الشيخ محمد أمين خربطلي ناظر الجامع الأسبق.

جدتي ثريا، السيدة المُلمة والنهمة للمعرفة والقراءة، كان لمؤلفات الشيخ النابلسي النصيب الأكبر من قراءاتها لترقى بعلمها وحكمتها وأساسها وحي الله ورسوله في القرآن الكريم والسنة، وتَلَقي العلم من أصحاب العلم الجليل والحق المُقام على أيديهم ووقع أقدامهم. كان لحُنوها وإحسانها أثرٌ لا ينضُب في قلوب من عرفتهم، والخير معقودٌ بين يديها، حتى في بَوحها وصفاء قلبها، فكثيرًا ما كانت تحثني وتَحُثُّ من حولها على أن نكون مِحْرابَ خَير مُتنقل بين الناس.. لا محراب المُتعبد المُنعزل عن هموم الناس، فإنَّها أشرف الأعمال عند الله..

محي الدين بن عربي الأندلسي المنشأ الدمشقي المُنتهى، الذي أتم العشرة أعوام حتى كان مُلمًا بالقراءات السبع للقرآن الكريم والتفسير، ليُسَلمه والده بعدها لطائفة من الرجال للترحال طلبًا لعلوم الفقه والحديث النبوي الشريف في بقاع العالم.. الموصل.. بغداد.. مكة.. القاهرة.. قونيا.. وحتى استقر في دمشق وتوفي فيها وكان ضريحه على سفح جبل قاسيون، حيث كان أميرها أحد تلاميذه ومن المؤمنين بعلمه وحكمته ونقائه، فعاش حياته في دمشق يؤلف ويعلم ويتعلم، وكان واحدًا من كبار العلماء بين أهل العلم والفقه في دمشق، وألتقى به عدد كبير من العلماء والطلاب من جميع أنحاء المعمورة ومن أبرزهم الشيخ جلال الدين الرومي..

ذكر التاريخ أنه مرض أثناء شبابه مرضًا أليمًا وفي أثناء ألم الحُمَّى رأى في المنام أنه محاط بعدد هائل من القوى الشريرة، مسلحين يريدون قتله والفتك به.. وبغتة رأى رجلًا جميلًا قويًا مشرق الوجه سمحًا، هجم على هذه الأرواح الشريرة ففرقها ولم يبق منها أي أثر وزال أثر الشر والخوف، فسأله محيي الدين بن عربي: "من أنت؟" فقال له الرجل: "أنا سورة يس"، وعلى أثر هذه الرؤيا استيقظ محي الدين فرأى والده جالسًا إلى جانبه يدنو من وسادته ويتلو عند رأسه سورة يس.. ثم لم يلبث بعد أن شفاه الله من مرضه الشديد، وكان نور فكرة أتته بأنه مُهيأ للحياة الروحية والبحث عن النور والتجلي، فآمن بوجوب سيره في هذا الطريق الحق حتى نهاية حياته ومماته في دمشق.

هي دمشق.. أقدم عاصمة بالتاريخ.. أرض الأنبياء.. الرحالة.. الأبطال.. والعارفين والعلماء والشرفاء الصالحين والشعراء والأدباء والأصفياء والمساكين.. مباركة أرضها.. مُبتلاة بأهوال تتدافع ما بين قوى الخير وقوى الشر.. ورغمًا عن كل ذلك فالشام صامدة والخير والحق معقودٌ في راياتها وبإرادة شرفائها.

يبدو أن سحر التنقل في الزمن البعيد كان حقيقةً اختطفتني لمُلاقاة أرواح من سكنوا هذا المكان بطرفة عين وبمهجة قلب.. عُدْتُ إلى وعيي في زماني، وزال أثر السحر المعتاد عني، يبدو أن مجلس الذكر انتهى بسماعي دعاء الختام والتأمين للإجابة من الله وبركات وسكينة أُغدقت عليّ من الملائكة المُتنزلين بالسكينة والرحمات..

إقْتَرَبْتُ من جدتي.. قَبَّلْتُ يدها اليُمنى وجبينها.. وجلست على الأرض أمام كرسيها مُسْنِدَةً ظهري إلى ساقيها، رفعت يديَ بالدعاء مع الحاضرين وأحاطت يديْ جدتي على كتفي.. والأفواه تصدح بـ آمين آمين آمين.. وأنا سَكَنتُ بنومٍ لا موت فيه.. هو النور ذاته الذي امتلأ بي وبكل ما حولي برفقة جدي وأمي وأبي عندما غبتُ عن الوعي بعد الحادث، فأحاطوني بنورهم بسلامٍ حتى استيقظت بحضن جدتي.. كان المسجد فارغًا والنور يملأه ويزداد وهجًا، وكلما اقتربت للخروج من النوافذ والبوابات أصبح الضوء قويًا والطريق طويلًا لا نهاية له حتى يئست من الخروج.. صوتٌ خفي ينادي باسمي.. "سارة.. سارة" إنه شيخٌ جليل، ظهرت ملامحه من وهج النور، كان نورًا وصوته يبعث على السكينة، خطى خطواته الخاشعة بنظره الساجد للأرض، جلس على كرسي جدتي التي اعتادت الجلوس عليه في المسجد، أغمض عينيه وقال لي مشيرًا إلى قلبي: "إن قلبك هذا أكبر من البحار السبع.. لا تتعجبي، فقط اذهبي والتَمِسي ذاتك في أعماق قلبك.. فقط من القلب.. يمكنك أن تلمسي السماوات.. وما تبحثين عنه سيبحث عنك"..

وما أن انتهى من كلماته المُهداة لي، حتى فتح عينيه وانبعث شعاع النور من عينيه إلى عينَيْ.. سقطت في الفضاء أو ربما في الفراغ المُنير.. حلقت إيمانًا بأن التحليق سينجو بي من السقوط.. ظهر على جانِبَيّ جناحان من ريشٍ أبيض يُشع نورًا أيضـًا.. زال الخوف من السقوط.. ولكن تعبت من التحليق في الفراغ المُنير.. سمعت جدتي واتبعتُ صوتها.. وفتحت عيْنَيّ واستَفَقت على صوت جدتي تُردد اسمي حتى

صحوت: "سارة أرهقك التعب عزيزتي، المسجد يكاد يفرغ، دعينا نغادر فرحلتنا اليوم طويلة"..

ما زالت السماء تهطل.. وأنا ارتسمتْ على وجنتي ابتسامة امتنان بذلك المنام أو ربما الرؤيا.. ترددت كلمات الشيخ الجليل مع وقع هطول المطر، أخبرت جدتي كالطفلة المُبتهجة من هدايا وهَبَتْها لها السماء، كنت خجلةً مِما سأبحثُ عنه ويبحث عني.. أتُراهُ ضياء.. أم أنه قدرٌ أعيشه وحدي.. وأن رحلتي بالبحث ستطول!!.. ضحكت جدتي وهي تُردد: "خير، خير إن شاء الله"..

هي حياتنا.. رحلة البحث.. وكُلٌّ مِنّا يبحث.. كُلٌّ منا يهبط أو يرتقي أو يبقى كما هو عليه مما يبحث عنه.. البحث عن الحرية.. عن الكرامة.. مديح الناس.. الإيمان.. الكذب.. الزيف.. الحب.. العداوة.. الكُرسي والسلطة.. لقمة العيش.. راحة وأمان لا خوف فيه.. والبحث بحرٌ لا نضوب فيه.. فإما الوصول إلى برِّ الأمان أو البقاء في الضفة من دون خوض تجربة البحث، وإما الخوض بجهل ونهايته الطوفان والغرق والخُسران.. وإما التحليق في ملكوت السماء من بعد تخبطات وولادات العارفين الحالمين المُتعَبين..

كانت رائحة الطعام اللذيذة من "طعام الدراويش"، والتي تنبعث من التكية السليمية مقابل مسجد محي الدين بن عربي، وقد بناها السلطان العثماني سليم الأول تزامنًا مع بناء جامع محي الدين، كان طعام حساء هريس اللحم والقمح أو كما يسمونها أهل الصالحية "هريسة محي الدين"، حساء الفقراء والمساكين وعابري السبيل، وقديمًا

كانت تُقدم لطلاب العلم الوافدين والحجاج العابرين من الشام ومأوى للنوم والأمن لمن لا مأوى له منذ أكثر من خمسمائة عام..

ماذا لو كان هنالك تكية في كل حي؟!.. وراعٍ تَقِي وورِع يتفقد أحوال أهل الحي واحتياجاتهم ويشفي آلامهم؟!.. الأمان.. الشبع.. التقدير.. الحياة الشريفة بلا خوف أو استعباد أو توقعات الرحيل إلى غياهب الجُب المجهول.. ومن دون حزن يُعَشِّش من جَرَّاءِ اختيارات الآخرين الجائرة في حياتنا وكرامتنا.. كيف تراكم هذا البؤس والفقر والقهر؟!. الأحياء العشوائية المضرة بالنظر والتي لا تليق بإنسانيتهم الراقية.. قصص الشقاء التي لا تنضب ونهايتها النسيان أو الخذلان.. أين الرقيب على ذلك كله؟!.. كيف لثغرات الفساد أن تشكل فارقًا كبيرًا لا صلة له بكل هذا الوباء والقهر؟!.. كل السطوة والفساد المُتنمر على كرامة الإنسانية.. ليست أقدارًا فحسب بل لَعَنَاتٍ استحقها الفاسدون ليكونوا أقدار شر جزاءً لخطيئتهم وإرادتهم وسعيهم فسادًا.. وتبقى إرادتنا السامية لنُقاوم على قدر إيماننا بالاستحقاق محاربين عجزنا بالدرجة الأولى، وليُحيط بنا القدر إلى خيرٍ وكرامةٍ نتعطش إليها، وربما احتاج الاستحقاق أجيالًا للوصول..

مكتبة
t.me/soramnqraa

من باب شرقي.. باب توما.. إلى الجامع الأموي

"موزاييك دمشقي وحمامٌ زاجلٌ أموي"

شتاء 2005

لم تنتهِ رحلتي التي أنتظرها في مثل هذا اليوم من كل أسبوع.. رحلتي الدمشقية أنا وصديقتي ثريا مرتجلتان بخطواتنا المتأنية من حي القيمرية إلى حي محي الدين.. إلى باب شرقي.. ثم من باب توما وصولًا إلى سوق مدحت باشا، حتى نُبصر مآذن الجامع الأموي مُتتبعتين صوت هديل الحمام الأموي ونورٌ يصدح به أذان الجوق من المآذن المهيبة المعانقة للسماء..

في باب شرقي حيث ورشة الموزاييك الدمشقي التي تمتلكها جدتي ويشرف عليها العم السبعيني ناظم الذي ورث هذه الحرفة اليدوية الدمشقية من والده ووالد والده حتى الجد الرابع. أما ثريا فكانت تنتقي بمشاركة ناظم بك تصاميم الهياكل الخشبية وأشكال الصدف والعظم الذي يتم تطعيم الخشب به يدويًا بأشكال هندسية مُنتقاة بكل نفسٍ طويل وخيال ينعكس تُحفة فنية. بيتنا الدمشقي كان

تحفةً فنية من الموزاييك، الأثاث وصناديق الملابس وصناديق المجوهرات وأبواب الغرف.. والمرايا.. حتى مشط الشعر وإطار النوافذ الداخلية والثريات.. كان كله من صنع يَدَيْ جدي يعرب.. كان مهر جدتي وحبها الذي صدَّفه في جَوف الخشب حنينًا لا يَنْفَك وأثرًا يُحاكي ويتغنى بعبق وعراقة جمالك يا دمشق.. حتى سريري ومرآتي وخزانة ملابسي ومشط شعري كانت من صنعه لتكون هديته لأُمي قبل قدومها للحياة، لتكون من بعدها هبةً لي وجزءًا من تكوين تفاصيل يومياتي في بيت "يعرب وثريا"، شاء القدر أن أمتلكها وأن أحظى بلمس كامل تعابيرها التي تحاكي وتروي خيال يَعرُب بعَينيه التي عكست امتنانه للحب والجمال، أناملـه التي ما زال وقع حفرها وتمليسها وتصديفها والمباهاة بها يُسمَع في زوايا قارورتنا العطرية.

موزاييك.. أن تُحاكي الجمال الذي يرتسم بخيال الحرفي الذي حظي بهويته الدمشقية، تحفة دمشقية تحمل معنى دمشق الياسمين، المهنة التي تجاوز عمرها الـ 300 عام لتعتمد على خيال الحرفي وصبره ودقته في تطعيم الخشب بالصدف والعظم بأشكاله الهندسية الدقيقة ليرتقي إلى لوحة فنية تدخل في صياغة خامتها الأساسية أنواع متعددة من خشب الجوز والكينا والليمون والورد الدمشقي والزان والمشمش والزيتون وغيرها من الخشبيات..

رحلة اليوم مُفعمة وطويلة، فنحن متجهتان إلى متجر عرض وبيع الموزاييك في باب توما ومتجرٍ آخر في سوق مدحت باشا، حيث يتم بيع منتوجات الموزاييك الدمشقي الأصيل التي ينتجها حرفيو ورشة باب

شرقي، هما أيضاً ملك جدتي وتتردد عليه أسبوعيًا للتدقيق في الحسابات والأرباح والنواقص من المواد الخام من المتجر، حتى متابعة طلبات التصدير التي يوصي بها المُهتمون من الخارج ومن الداخل أيضاً..

باب توما.. هذا الحي مقصدي الدائم عند رغبتي وحاجتي المُلحة للخطو والسفر بخيالاتي في زقاقها وشوارعها.. لا شيء يضفي على روحي الرحيل من زمن نكاد نلفظه ونجتهد لنسيانه أو معايشته سوى أن أختبئ في حضن دمشق القديمة المتسورة بالأبواب السبعة أو العشرة الحامية.. هو شعور لا أكثر.. خيال لا حقيقة.. لكن يجب أن نكون على قدر الخيال والاستحقاق رغمًا عن كل شيء..

حان وقت استراحتي أنا وثريا.. وكانت دعوةٌ من السيدة الأنيقة على الغداء في مطعم الياسمين في زقاق باب توما، هو بيت دمشقي قديم تم انتقاؤه ليكون مطعمًا شاميًا أصيل الهوية.. وأنا بالطبع قبلت دعوة جدتي السخية الكرم..

لدمشق منذ فجر التاريخ سور عظيم يحميها وأهلها من بطش الشر، حيث كان أول سور بُني بعد الطوفان سور دمشق، وكان فيه أبوابٌ كانت ممرًا لجيوش وقادة عظماء دخلوا منها فاتحين أو غزاة، تُغلق وتفتح تكيفًا مع حاجتهم للأمن وللتجارة والترحال، ولم يزد عددها على العشرة أبواب، سبعة أبواب من العهد الروماني، حيث أن معظم الأبواب آرامية على أنقاض أبواب يونانية إلى أن جاء الرومان ليعيدوا بناءها حيث كان لكل باب رمز كوكب يُميزه، وعلى كل باب تم نقش كوكب معتقدين بأنها تحمي دمشق، والأبواب السبعة هي باب الصغير

"كوكب المشتري" جنوب دمشق، وباب كيسان "كوكب زحل" الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة، وباب شرقي لأنه يقع شرق المدينة "كوكب الشمس"، وباب توما "كوكب الزهرة" من الجهة الشمالية الشرقية، وباب الجنيق من الشمال ولم يعد موجودًا حاليًا، وباب الجابية "كوكب المريخ" ويقع غربًا، وباب الفراديس أي البساتين بلغة الروم ويُعرف بباب العمارة لأنه تابع لحي العمارة وهو باب مصفح بالحديد ويرمز إلى "كوكب عطارد. وأما الأبواب الإسلامية فهي باب السلامة الذي بناه القائد نور الدين زنكي وسمي بذلك تفاؤلًا لأنه لا يمكن قتال المدينة من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار التي تمنحه الحماية، وباب الفرج من الجهة الشمالية، أيضًا بناه نور الدين زنكي وسماه بهذا الاسم تفاؤلًا لما وجد من التفريج والخير والنصر بفتحه، وعُرف زمن العثمانيين باسم باب البوابجية لوجود سوقين هناك لصناعة البوابيج، وأخيرًا باب النصر، ولا وجود له اليوم وكان موقعه قرب مدخل سوق الحميدية، ويعتقد أنه قد تم بناؤه في العهد السلجوقي.

اليوم بالنسبة إليّ وإلى ثريا ما زال باكرًا في أوله عند محطتنا قبل الأخيرة في سوق مدحت باشا، حيث كان المتجر الثاني والمعرض الأكبر والرئيسي لجدتي لتسويق منتجات الموزاييك والذي يديره عمي عادل شقيق جدي يعرب. عمي عادل السبعيني المربوع القامة، الأشيب الشعر، مفتول الشاربين الأنيق بطربوشه الأحمر الذي ما انفك يعتمره، والغليون الذي ما زال ينفث فيه من بعد والده وجده التاجر المرموق في سوق الحرير وأسواق إسطنبول، كان الموسوعة التسويقية بأسلوبه المُحَبب وتراثه

المُوثق بعلمه بالموزاييك وأنواعه وأشكاله، وتغنيه وتمسكه بتاريخ دمشق القديمة الذي يرتبط بتجارة الموزاييك والحرير، سوق مدحت باشا هذا السوق العتيق وسمي بالسوق الطويل أيضاً وأنشئ عام 1878 م في عهد والي دمشق العثماني (مدحت باشا)، حيث يمتد سوق مدحت باشا فوق الشارع الروماني المستقيم ويقع هذا الشارع في قلب دمشق القديمة موازيًا لسوق الحميدية، ويُعتبر من أعرق أسواق دمشق القديمة ومن الأسواق الشرقية العريقة، مسقوف في الجزء الأول منه ولمسافة كبيرة وعلى جانبيه المحلات ذات الطابع التاريخي القديم العريق والحوانيت، يخترق المدينة القديمة من باب الجابية إلى باب شرقي ويتفرع منه أسواق قديمة وتجارية مثل سوق الحرير، سوق البزورية، سوق الخياطين، سوق الصوف وغيرها من الأسواق المهمة إلى يومنا هذا.

أَتَمَّت جدتي عملها بالتدقيق والحسابات مع عمي عادل، وخرجنا من متجر مدحت باشا.. ولم يتبق سوى المحطة الأخيرة مما اتفقنا عليه مساء البارحة.. سألت جدتي إذا كان في قواها ما يسندها للمشي باتجاه الجامع الأموي لنحظى بالصلاة فيه مغادرين بعدها لبيتنا إلى حي القيمرية.. نظرت إليّ جدتي بابتسامتها متجاهلةً أنفاسها التي تسارعت تعبًا من يومنا الزاخر بالخطو.. لملمتْ قواها وشبكت يدها بيدي مستندةً مستأنسةً بالرفقة لنتجه إلى الجامع الكبير.. جامع بني أمية أو كما تعارف عليه الجميع بالجامع الأموي..

في الطريق يعبرُ العابرون من شتى الوجوه المختلفة من كل صوب، لا أعي أو أتنبه لشيءٍ من ملامحهم سوى صفة العبور.. فباللاشعور

كنت دائمًا أبحث عنه طمعًا في رؤيته خارج حدود الجامعة أو في حَيِّنا من بين وجوه أحد العابرين قصدًا أو صدفةً أختلقها في البحث عنه لعلي أراه.. فوجوده أمام ناظِرَي يُسكِنُ تلك الفتاة المشاكسة الساذجة التي تبحث عنه في كل ما يجول حولها.. وغيابه يلقي بشكل من أشكال الثِقل على الروح والنفس، حيث تفقد التفاصيل اليومية المعتادة حيويتها ويشوبها الملل والسطحية واللامعنى، كنت أستعير مخيلتي به وأسقطها في كل ما هو معتاد حتى ترتقي كل التفاصيل وكأنها هبة ربانية ببهجةٍ ونور لا ينطفئ بريقه ولا حِوَلَ عنه ولا يشبه بجماليته شيء مما استحضرته من وحي صورته العالقة في مُخيلتي.

ها قد وصلنا إلى بوابة الجامع الأموي إحدى البوابات الأربع، وهي بوابة جيرون أو كما يسمونها بوابة النوفرة التي تقابل بوابتها نزولًا بدرج يؤدي لمقهى النوفرة الذي يزيد عمره عن ثلاثمائة عام. يقال أن اسم البوابة يعود إلى الملك جيرون بن سعد بن عاد، حفيد النبي نوح عليه السلام، هكذا روت العرب قديمًا، وهو الذي أنشأ مدينة جيرون، والتي أصبحت في ما بعد دمشق.

اشترطت على جدتي أنه لن تكتمل بهجة يومي الدمشقي إلا بدعوةٍ مني لها لشرب الشاي وسماع قصة الحكواتي في مقهى النوفرة، أسندت ثريا يدها إلى كتفي قائلةً بضحكة القبول: "وأنا أيضًا لن تكتمل بهجة يومي إلا بكأس شاي وقصة حكواتي وبدعوة كريمة منك، لكن لندخل باحة الأموي ونتهيأ لسماع الأذان والصلاة وبعدها أُلبي دعوتك".

في كل مرة أدخل من هذه البوابة (جيرون) ينتابني إحساسٌ يَقْشَعِرُّ له بدني وتطيب به روحي، وكأن ماردًا مهيبًا يُنير الطريق من هذه البوابة العظيمة، وكأنه يذكرني بمشاهد ترهبني بأن الإنسان قد سكن دمشق في الألف الثانية قبل الميلاد، ومن هذا الباب الذي أدخل منه كان قد دخله وخرج منه أعداد لا تُحصى بل ملايين البشر بحكاياتهم وتاريخهم بمختلف اللغات والعادات والديانات والانتصارات والهزائم التي شهد عليها باب جيرون، كُلنا عابرون منك يا شام من خلال آلاف الأعوام التي عبرت من تلك البوابات، ومعها عبرت ملايين الحكايا. ذكرت القباني وردّدت شعره بلحن مرتجلٍ من هيامي بمن أسكُنها وتسكنني، إذ قال فيها شاعرها الدمشقي "نزار قباني":

كتب الله أن تكوني دمشقًا
بك يبدأ وينتهي التكوين
إن نهر التاريخ ينبع في الشام
أيلغي التاريخَ طِرْحٌ هجين

أكثر ما يزيد هذه البوابة هيبة أنها حارسٌ لصلاة الفجر، حيث أن موقعه وكأن الذي حددَّ مكانه نحو شروق ضياء الشمس في الجامع الأموي ليكون نور الشمس أول العابرين من بوابتها من كل يوم جديد، ومن قبله كان كحارس المعابد القديمة، بدءًا من معبد "حدد" قبل ألف عام من الميلاد بداية العهد الآرامي، مرورًا بمعبد "جوبيتير" بتقدم الرومان نحو الشام، هو ذاته أصبحت أركانه كنيسةً باسم يوحنا

المعمدان، أو نبيّ الله يحيى بن زكريا عليه السلام، ويقال أنه هنالك في حرم الجامع الأموي دُفن رأسه الشريف.. هذا المعبد الشاسع الذي أصبح جامعًا في العام الرابع عشر للهجرة، حين أعاد بناءه الوليد بن عبد الملك، وأسماه الجامع الأموي نسبة لبني أميّة، وحينها أصبحت دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية..

توسطنا أنا وثُريا باحة المسجد الأموي الرحبة.. حمامٌ رمادي وأزرق الريش يُرحب بالقادمين.. فتحتْ جدتي حقيبتها لتُخرج حبوب القمح الخاصة بالحمام وبدأت تباعًا مع رفع أذان الجوق الأصيل بنثر الحبوب والترديد مع المؤذنين.. لن أنسى ذلك المشهد السرمدي المهيب من طواف الحمام حول ثُريا وسكينته على كتفيها وكفيها تتابعًا مع ذِكرٍ يصدح تجليًا في السماء ومع ما امتدَّ من رحاب أرض دمشق.. آذان الجوق التراثي له تاريخ مرتبط بدمشق، حيث أن أهل دمشق الأصيلين المقيمين في مدينة دمشق القديمة قادرون على تمييز أيام الأسبوع من الأذان ومقامه الذي تطلقه مئذنة العروس في الجامع الأموي منذ عدة قرون، ذاك الأذان الجماعي الذي حيكت حكايات عن مقاماته المتنوعة الجليلة، الأذان الجوق كما يسمى في المراجع التاريخية حيث يبدأ المؤذن بنداء (الله أكبر.. الله أكبر).. ويتابعه خمسة مؤذنين بنفس الجملة وفي وقت واحد لكن بمدة زمنية أطول.. وهكذا يرددون بنفس الوتيرة إلى نهاية نداء الآذان.. مع العلم أن الأذان الجماعي كان محصورًا في مئذنة العروس أكبر المآذن الثلاث، وكان الأذان يُرفع من كل مئذنة بشكل منفصل، إلى أن تم توحيد الأذان في

المآذن الثلاث، ويعود آذان الجوق إلى الشيخ عبدالغني النابلسي وهو فقيه ومحدث ومنشد ديني وشاعر وُلد في دمشق 1641م وتوفي فيها عام 1731م، فكانت غايته من ذلك إيصال الأذان إلى أكبر مساحة واسعة حول المسجد في دمشق.

هي دمشق.. حكايتنا.. أو حكايتها التي منحتنا هبة أن نعيش في كنفها وبتاريخها الفخري بالأحداث وآثار العظماء الذين سطروا فيها الحكايات رغمًا عن كل الفجائع والطغيان الذي طال بها.

اقتربت من جدتي والحمام الأموي، وأضَفتُ على هذا المشهد ذاتي المستنيرة بها، ابتعدتْ جدتي وتركتني وحيدةً بين الحمام في المشهد لتلتقط الصور لي حيث أُداعب الطيور وألاحقها وتلاحقني وأطوف حول نفسي بفستاني الأزرق المتورد وتطوف حولي وكأنها تدعوني رفعة للتحليق إلى السماء. حمام الجامع الأموي هو مزيج ما بين الحقيقة والخيال، وربما كان واقعًا أو أسطورةً، نسج الناس حوله عدة حكايات جميلة، حيث تقول الحكاية أنه لا يمكن للحمام أن يعيش بعيدًا عن الجامع الأموي حتى لو كان يومًا واحدًا فقط، فإن خرجت ماتت فور ابتعادها عنه، والحكاية الأخرى أن حمام الجامع الأموي في دمشق يذهب في كل عام وقت الحج إلى مكة المكرمة ليحج مع الحُجّاج، ثم يعود بعد ذلك إلى ساحة الجامع الأموي. أما بالنسبة إليّ فلا أعتقد أنها خيال وأجزم أنها حكاية حقيقية لنستأنس بها ولنُبقي ذاك الجمال الذي تبقى من ذواتنا، من هول القادم على دمشقنا وإنسانيتنا.. من ما تَبَقى مِنا ولنا..

حكواتي النوفرة.. "الحُبُّ الذي تنهيه الأقدار لا يُعَوَّلُ عليه"

شتاء 2005

خرجنا من باب جيرون كما دخله وخرج منه الملايين منذ سنين عابرة، حي النوفرة الدمشقي يقابلنا، وفي مقهى النوفرة كانت الطاولة التي اعتدنا الجلوس عليها فارغة، سارعت بخطواتي كي لا يسبقنا إليها أحد، أعلم جيدًا أنها طاولته المُفضلة وكرسيه الذي يحظى به. وضعت حقيبتي على الطاولة ورجعت إلى جدتي لأرافقها في ما تبقى من خطوات للمقهى، طلبتْ جدتي شاي "أكرك عجم" وأنا كذلك طلبته، مع أني لا أرغبه إلَّا أني أفضله دائمًا في هذا المكان فقط لعلي التمس كأسه التي يشرب منها شايَهُ صدفةً.. ألوم نفسي كثيرًا على الرضوخ باللاشعور لهذه التفاصيل والاهتمامات المجنونة، إلا أنِّي أُقنع نفسي بأنها انعكاسات ما يمليه عليَّ قلبي ويصدقها عقلي بفعلي طوعًا وامتنانًا وطفولةً راقية بريئة..

ليس كل ما نبحث عنه يبحث عنا.. ربما نجده بصورة مغايرة لما يُراد.. الإرادات تقاوم العجز حتى الوصول والوصل والاستحقاق

وكأنها القدر المحتوم الذي نراه بصورته التي نُحب ومع من نحب متعلقين به، وكأن الحياة على شفا حفرةٍ من فقدانهم.. لكن الأقدار تسبق النتائج التي نسعى لها، فتوافقها أو تخالفها عنوةً عن التوقعات والأماني.. ويرافقها الألم والسعي الذي نظنه فعلًا وهو الفعال لما يريد، إشارة للفَطِن بأن الأقدار التي وقعت من بعد سعي وحضور قلب يُسلَّم لها يقينًا بحكمةٍ وخيرٍ يُراد ولو بعد حين.. ربما كان الألم الأكبر ذاك الوهم الذي يُطَوِّقنا ويحبسنا وهمًا بأن الحياة ستتوقف من دونهم.. أو أن ذاك الشغف في التفاصيل سينطفئ.. أو أن رحلة البحث ستقف بخسرانهم رغم أنها منحة تَبصُّر لا محنة خُسران.. لا شيء يتوقف.. كل شيء يمضي بحكمة وتقديرٍ مُحكم.. دوران الشمس.. القمر.. هطول المطر الذي لا يُعادل نعمتَه شيء.. تغريد العصافير.. ولادات أرواح ورحيل أرواح.. تسابيح الكون.. فقط في كُلٍّ منا إرادة.. فإمَّا تَعْلُو.. وإمَّا تَسْفُلْ.. وإما تُثَبَط، فكُلٌّ يسعى ويبحث ويبتغي ولِكُلٍّ مقام محمود أو مذموم..

في اللحظات التي كنت أستمع فيها إلى حديث ثُريا عن السيدة من حلب التي طلبت تصميم كامل قصرها من الموزاييك الدمشقي، غَفِلتُ في البحث عنه في الوجوه باللاشعور أيضًا، حينها فقط خرج ضياء من بوابة جيرون.. اشتعل الخجل حُمرةً في وجهي.. لكن سرعان ما زال والتَقَمتُ صفعةً فأفقت من العالم الذي طالما أنا حددتُ معالمه.. ومن التوقعات التي أنا حددتُ تفاصيلها بانتظار التحقيق بالوصل، كانت فتاةً من جامعتنا أعرف ملامحها جيدًا ترافقه، ينظران لبعضهما وكأنه عالم

أُختُزِلَ لَهُما يرسمانه ويلونانه بحدود من الضياء وبحُبٍ يكتب لهما قدر العيش معًا بحلو الحياة ومُرها.. كنت قويةً كفايةً لأتظاهر بالتركيز مع حديث جدتي ومقاومة كل التوقعات التي تُخالف الأماني.. خطواتهما تشير أنهما متجهان صوبنا من البوابة نزولًا بالدرج نحو المقهى.. كان ناظرًا إلى الطاولة التي اعتاد الجلوس عليها.. تَنَبهَت جدتي لهما فهو جارنا وحفيد صديقتها خالتي "أم يعرب"، أشارت لهما بكفها وأنا انتابتني حمّى وتسارعت دقات قلبي بحرقة الغيرة من التوقعات التي أصارعها تكذيبًا ونفيًا..

تذكرت ما قاله الشيخ النوراني الجليل في النبوءة ومنامي في جامع محي الدين وكأني أسمعه لحظتها.. لا شيء يُطمئن النفس ويُسكن القلب إلا الإنسان ذاته وما مَلَكَ من وقود العلم بما يسنده ويسمو بروحه والفهم الصحيح والتجارب التي تُثريه بولادات التجدد والرُّقي.. هذا كله إن مَلك بكامل عزمه إرادة نقية من دون هوان وسقوط..

هي الروح، تتوالى الأقدار عليها بِحُلوِها ومُرِّها وتتوالى الولادات عليها كلٌّ حسب اجتهاده ومبتغاه، وتتبدل العلاقات الإنسانية بحسب الظروف واحتياجات أرواحنا وإراداتنا وعزائمنا، فولادات الأرواح تتلوها علاقات جديدة ووصل تسمو به كل روح بحسب ما تبتغيه من الرقي بالذات وتقربها للخالق بجماله وعدله وفهم حكمته أكثر فأكثر.

يقول جلال الدين الرومي: "لم يكن أبدًا من شروط السير إلى الله أن تكون في حالة طُهرٍ ملائكية، سِرْ إلَيْهِ بأثقال طينك فهو يحب قدومك عليه ولو حَبْوَاً"، وما الطريق إلى الله إلا والثِقَلُ يَمْلأ جَنبَات النَفْس،

والبَصَر يَحُده صراع بفهم حقيقة حكمة ما وراء القدر، وروحٌ تستنجد بدوام البحث وثبات ما عُقِد عليه القلب، وهجران كل ما أثقل الروح إلى أن حطَّت إلى الأرض، وأن نُنْصت لآلام تَبْعَثُ علينا بِرُسُل لنُنصِت إليهم وإن طال زمن الإنصات، وأن نتابع بدوامٍ العزمَ على كسر الحواجز التي في دواخلنا لعلنا نجد الحب ونلتمس السماء ونفتح للنور طريقًا يكسر ظُلمات القلب ويأنس بحب ورحمة الرَّب، إيمانٌ يتجلى وروحٌ تنطلق بالجسد إلى حيث الرَوح والرُوح في أرقى وأطهر السماوات.

نَفْرَحُ لفرحهم رغمًا عن كل شيء..
من دون التفات
"قهوة وبَحْرة"

شتاء2005

كان صباحًا موحشًا، يشوبه الكثير من التساؤلات حول الحياة.. الأقدار.. الفراق.. الندم.. التسليم.. سألت نفسي.. إن كنت على صواب مما أنا فيه.. فماذا عن المستقبل؟!.. هل القلوب ستتبدل والأحوال ستتحسن للأسوأ أو تسوء للأحسن.. ماذا عن تفاصيل يومياتي التي تنبعث من بريق عينيه؟!.. كانت الأزقّة والحارات وحديقتنا تحت سماء الشتاء الغزير ترتسم بِمُخيلتي بوحشةٍ ووحدةٍ تُخيفني من دونه.. وأنا لا أجرؤ على القَدر الذي وقَع بخيالٍ أرتسمه بكل شيء إلا من دونه.. ستكون ولادةً جديدة.. وألمٌ سأستصرخ به رُغمًا حتى أُبْصِرَ النور من جديد.. وستكون الحارات القديمة والأزقّة وحديقتنا وكُل ما أملِك مُبهجةً بي وحدي من دونه..

حديث وضحكات جدتي وخالتي أم يعرب من حديقتنا تملأ مسامعي حول حفل خطوبة حفيدها ضياء على تلك الفتاة، سأستجمع

قواي وأُذكِّرُ نفسي بأن الأقدار كُتبت وكُلها خير لا شك فيه.. وليس أمامي إلّا الانشغال بتقاريري الصحفية للقضايا الإنسانية ممن لا صوت ولا قوة لهم.. سأقاوم اشتعال الغيرة وأطفئها.. فقط القليل من الزمن أو الكثير وهذا ما سأختصره.. كل عزيمتي كانت حول أن يبقى قلبي بلا سخط أو نكران وبلا دخان سوءٍ يشوبه.. كان صراعًا وجهدًا أقاومه في كل ما أكره ولعله كان وسيكون خيرًا.. إحْتَضَنْتُ وسادتي وأطبقت أسناني عليها لأخرج صرخات من دون صوتٍ لذلك الإنكار لفقدان أمي.. أبي.. ضياء.. وجدتي التي أخاف فقدانها.. خوفًا على دمشق من أهوال ستُصيبها وتُصيب من لا قوة له.. رددتُ كلماتي التي كانت علمًا وإيمانًا ينتشلني من فتنٍ وأحزان تهوي بنا نكرانًا بلا عرفان: "شاء الله وما قدَّر فعل، وكله خير".. بكيت كثيرًا وصرخت بأنين من دون صوت أو همس.. تذكرت جدتي وبكاء الصبر.. لكن صبر ماذا وعن أي شيء؟! فأنا أقنع نفسي أنه خيرٌ وسأتجاوزه.. هو قرار ووضوح مع النفس قبل كل شيء.. سيكون بكاءً.. لكن بكاء سكينة وإنابة لما أنا فيه ومن ما هو قادم.. ما دام من دون عجزٍ أو خطيئة.. ما دام بكاء الإقدام وعَيْنُ اليقين بأن كل ما هو قادم سيكون أسمى من أن نخسر أغلى ما نملك.. قلوبنا النقية.. السليمة.. تذكرت حينها جيدًا ومرارًا ما قاله العجوز النوراني وكررت كلماته:

"إن قلبك هذا أكبر من البحار السبع.. لا تتعجبي، فقط اذهبي والتمسي ذاتك في أعماق قلبك.. فقط من القلب.. يمكنك أن تلمسي السماوات.. وما تبحثين عنه سيبحث عنك"..

نهضتُ من فراشي.. إتَجَهْتُ لمرآتي ومن قبلي كانت مرآة أمي ذات الإطار المُصَدَّف.. أرغمتُ دمعي على النضوب طوعًا لا رُغمًا.. تحسست خطوط التجاعيد التي رسمتها وسادتي بتطريز الزهور وأنا أسقيتها الكثير من الدمع طيلة الليل.. عاهدت نفسي أن أبدأ أو أن أُكمل من دون التفاتٍ أو تساؤلاتٍ أو انتظارِ قدرٍ أنا أرسمه باللاوعي بما يناسب أهوائي التي خالفها ما وقع من قدرٍ حاضر.. بماذا سأبدأ وكيف؟! سأُمشط شعري الخروبي وسأضع الطوق الأبيض اللؤلؤي.. ولا بأس بالقليل من وردي الشفاه.. ارتديت قميص النوم اللؤلؤي ذا الأكمام والقبة بالدانتيل الأبيض وحبات اللؤلؤ.. كان لأمي أيضًا وأخاطته جدتي بيديها.. تعطرت بعطري الذي أُفضله ونثرت أكثره في زوايا غرفتي.. كأن سكينةً تنزلت لتسندني مما سبق ومما هو قادم.. قوة ورضا.. ولا أعلم إن كنت سأعاود الحديث مع نفسي والالتفات في كل مرة لأصل لذاك السلام والتسليم.. أو أنه حالٌ لا رجعة فيه وهذا ما دعوت الله به.. ولكل ندبةٍ في القلب وقت غير معلوم للشفاء..

خطوات جدتي تصعد الدرج وصولًا لغرفتي.. استبقت فتح بوابتي نزولًا.. التقيت جدتي منتصف الدرج.. قبلتني باحتضان..

- صباح الخير ستي ثريا..
- شمسك عالية يا عروس.. والقهوة على البحرة..

"القهوة عالبحرة".. مُمْتَنَةٌ لجدتي لسماعي كلمة "قهوة" و"بحرة".. وكأنها رسائل من السماء بلسان ثُريا لتذكرني ولأستحضر جمالًا بين تفاصيل يومياتي.. تذكرت حينها مقولة القباني عن برِّ الأحفاد للجدة:

"القَهْوَة هيَ عَجوزٌ مُعَمِّرة، لها أحفادٌ بَرَرة يُقَبِّلُونَها كل صباح ومساء وأنا أكثرُهم بِرًّا بها".. ولا شيء يُعادل تعبيره الذي أصاب عشقي لقهوتنا المعقودة بالياسمين الدمشقي.. قهوتنا أنا وجدتي، ذاك الاستشعار بشغف ونعيم الحياة بحلوها ومرها بدءًا من تحضيرها بكل إجلال ومرورًا بفناجين منتقاة على صينية مفترشةً الشال المُطرز مِبَعثرةً بياسمينات تسابَقْنَ لمشاركتنا جلستنا، وحتى ارتشاف القهوة مع جلسة سلامٍ في عالمٍ تملؤه صراعات بمختلف الموجزات في الأخبار اليومية..

أما بحرة بيتنا.. فهي القلب الكبير الذي أغترف من نعيم مياهها وضوءًا يُطهر كل ما علق بي من ثِقل الخطيئة.. ثقل الحَزَن.. تُضفي نعمةً من الانشراح الذي ننتشي به رغمًا عن تَعَبٍ أصاب القلوب، مُتَهَيِئين ومُقْبِلين ببركتها لسجودٍ لا نَصَبَ ولا خُسران فيه، واللهُ لا يُخلف وعده لِمَن ابتغاه في كُل حولٍ وحال...

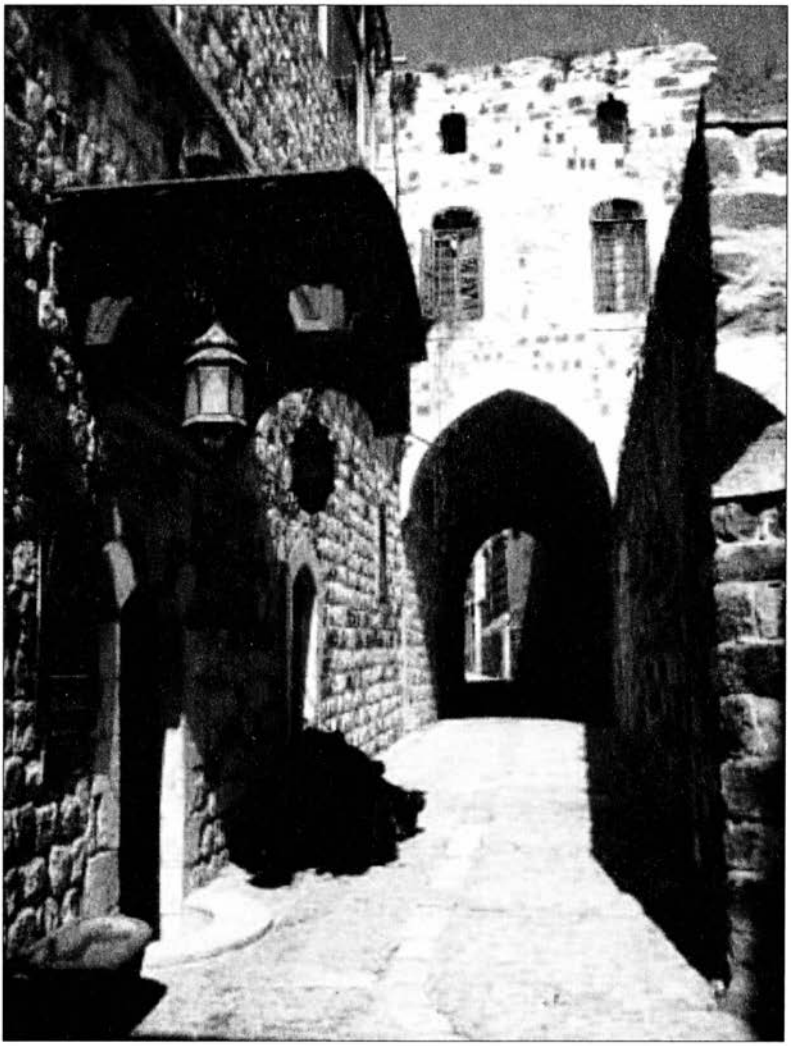

أقواس دافئة تَعلو ممرات الزِّقاق "قَناطر عِرنِي كتفك"

أقواس دافئة تَعلو ممرات الزِّقاق
قناطر عيرنِي كتفك

دمشق شتاء 2010

كان يومها نهاية الأسبوع في الصحيفة التي أعمل فيها.. كانت جولتنا اليوم ميدانية مع زميلات العلم والعمل، مع صديقاتي.. فاطمة حفيدة عمي عادل.. وليلى ابنة حلب الشهباء. إتَجَهْنا إلى مخيم اليرموك لتحضير التقرير الصحفي عن عائلاتها والتحديات التي يواجهونها في سبيل العيش الكريم، ودراسة الحلول قدر الإمكان والتواصل مع الجهات المعنية لمواجهة مشكلات الفقر والجهل والمرض والبطالة وأهمها مشكلة التعليم.. كان قلبي مقبوضًا طيلة اليوم من ما رأيت وسمعت من العجز أمام براثن الفقر الذي انعكس في الوجوه عتابًا لا رحمة فيها اتجاه حقٍّ مسلوب وفرحٍ ممنوع تكمن أسبابه في كُل مُقتدرٍ منا ولو بكلمة طيبة، وأساسها أبراج عالية يتبعها ويعلوها كل من أفسد بصره وقلبه البَطَرُ والفساد والكِبَر فاستقرَّ بصره عاليًا فلا ينظر في ما يجول أسفل برجه العاجي الهش..

كان يومًا ماطرًا.. اتجهت مع فاطمة وليلى إلى بيتنا بدعوةٍ من ثريا على الغداء.. استفضت بكاءً منهمرًا مع وقع المطر في زقاق القيمرية..

وشاركتني فاطمة وليلى بكاءً يختلط به تأنيب الضمير، يحمل خطايا قصصٍ عشناها في بيوت مخيم اليرموك بل في العالم أجمع، للبكاء نعمةٌ في وسط نعمة المطر.. أن نبكي لحالهم فهذا يعني أننا أقرب لإدراك حقيقة المسؤولية التي لا ولن يَبْرَأَ منها أحد.. لم يكن الجو باردًا فحرارة الدموع والقهر تسبق رعشة الصقيع، اشتد الهَطول أكثر ولُذنا لأسقف الزقاق.. كانت الأقواس التي تعلو الزقاق مظلة نستظل بها شتاءً وصيفًا وفي صورٍ نلتقطها للذكريات الدمشقية، يومًا ما حدثتني جدتي عن قصة هذه الأقواس الجليلة والتي تُسمى بأقواس "عيرني كتفك". فهو مثل شعبي انتشر بين الدمشقيين منذ مئات الأعوام، وهنالك قصةٌ وراء وجود هذه الأقواس في ممرات وأزقّة دمشق القديمة.

جاءت الفكرة الأولى وفقًا للمتداول بين الناس أن رجلًا كان يقطن في حارات دمشق القديمة قرر تزويج ابنه البكري، لكن منزله كان ضيقًا ولا يتسع لِيُسكنه، ولم يكن لديه القدرة على شراء أو استئجار بيت مستقل له، ففكر ببناء غرفة على سطح منزله، ولكن السطح كان ضيقًا أيضًا، ويحتاج إلى بضعة أمتار لتوسيع الغرفة، وهذا ما يتطلب أن يأخذ كتف الزقاق وطلب إذن موافقة جاره المقابل ليسند الجسر على جداره، وعندما ذهب إلى جاره لم يستطع التعبير عمّا بداخله، فخرجت منه مقولة: "عيرني كتفك"، وكان الجار يعلم ضيقه وعدم قدرته على الشراء أو الاستئجار لولده منزلًا، فأجابه على الفور: "عرتك إياه"، فكانت أقواس النصرِ والفرح والمحبة على جدارين متقابلين تعلوه غرفةُ العريس بنوافذها الخشبية الطويلة وزجاجها المُلون وجسرٌ يحملها

مستندًا بين جدارين، ليكون أسفلُ الغرفة قوسًا حجريًا جميلًا نشهده حتى يومنا هذا.. وانتشرت من بعدها تكافلات وأفراح الجيران أقواسًا أو قناطر تزيد المدينة جمالًا وهيبةً وودًا.

تردد كثيرًا في مسمعي مما يقوله الكبار سنًا من الأحاديث في ظل الفقر والجهل والفساد الذي نعاصره.. جملة "أيام زمان كانت بركة والناس كان فيهم الخير".. "والليرة كانت بتجيب".. و"الناس ما عادت زي قبل"... وأنا أتفق مع كل ذلك، وألتمس حقيقةً نعيشها في حكاياتٍ نتألم لسماعها، وأكثر ردود الأفعال نتجاهلها بحجة "قلبي لا يحتمل سماع ذلك".. ليكون بعدها نوم هني وانصرافٌ للمصالح الشخصية تلبيةً لنداء راحة الضمير الكاذبة الخبيثة، ليزيد الفساد ولِيَجترَّ ضحاياه بإدراك القضية المُجتزأة منهم، ولِكُلٍّ منا خطوةٌ في ذاك الطريق المُظلم الذي نزيده ظلمة.

"سافرت خارج الزمن.. إلى مدينةٍ كان اسمها حلب"

خريف 2018

"يا رايحين ع حلب حبّي معاكم راح.. يا محملين العنب تحت العنب تفاح.. كل مين وليفو معو وانا وليفي راح.. يا ربي نسمة هوى ترد الولف ليّ".. أغنية تراثية انتقاها سائق المركبة من دمشق إلى حلب.. سارَعت كلماتها من استفاضتي بالبكاء صمتًا واستحضار ذكرى جدتي وجدي.. في الطريق رافقني وقتها عمي عادل في هذه الغربة إلى حلب التي لا تشبه شيئًا من حلب التي أعرفها جيدًا في ذاك الزمان.. الحنين يُصيبُ القلب بندبات متراكمة تُرغمنا على العيش في زمان لا يليق بجميل الأزمنة المستحيلة من أن تعود.. والمشاهد لرُكام الحجر في الطرقات ولوعات أرواح البشر التي أكاد أسمعها تكاد تفتك بي ندمًا بإصراري على زيارتها بأمل أن أراها سالمة ولأتفقد متجر جدتي والصورة المُعلقة على جداره التي جمعت يَعرُب برفاقه من ثوار حلب ضد الاستعمار الفرنسي، كنت خائفةً من أن يلحق الخراب والحريق بها كما أصاب جزءًا كبيرًا من خان الحرير. لا شيء يُرمم ما أصابك يا

شهباء من انتهاك وانتزاع من الأزمان البهية التي احتضنتها تُراثًا وأثرًا شاهدًا على عظمتك.. في مثل هذه الأيام من كل عام قبل الجائحة الإنسانية كان موعدنا أنا وثُريا مع حلب.. زيارة ليومين أو لثلاثة أيام في فندق البارون الشهير الذي تُفضله جدتي.. لإتمام عملها في متابعة أحد معارضها لتجارة وبيع قماش الحرير في خان الحرير..

فندق البارون الذي أسسه وأتم بناءه عام 1911 الأخوان "أرمين وأونيك مظلوميان" من أصول أرمينية.. الفندق الذي كان إرثًا عائليًا تاريخيًا متميزًا بعمارته وبالشخصيات السياسية والأدبية والفنية التي لا تزال آثارهم موثقة في كل غرفة نزلوا فيها، أخذتْ اسمهم وصورة حائط تُشيرُ لمكوثهم فيها يومًا ما.. كلورنس العرب.. الملك فيصل.. جمال عبد الناصر وإلقاء خطابه لأهل حلب من الشرفة إبان الوحدة بين مصر والشام عام 1958.. وبعيدًا عن شخصيات السياسة والحروب فقد نزلت فيه أيضًا الكاتبة البريطانية أغاثا كريستي وكتبت أبرز روايتين لها وهما "جريمة في قطار الشرق السريع"، و"جريمة في بلاد الرافدين" عام 1934، حيث أقامت في الغرفة رقم 203.. لكن ما سِّر عنوان الروايتين المشؤوم.. ربما كانت نبوءة أغاثا باللاشعور بما سَيُصيب حلب والشام والشرق أجمع من جرائم بحق الإنسانية وما أصاب الأهل والبلاد وهيبتها التاريخية والتراثية.. رُبما الموت القادم إلى الشرق.. فندق البارون الذي لم يَعُدْ سوى مأوىً يستأمن به النازحون هربًا من هول الحريق الذي يتقاذف ببساطتهم وكرامة عيشهم من كل صوبٍ غير مُفرقٍ بين حجرٍ وبشر.. حتى الحجر اندثر ونزح من زماننا وعاد لزمانه من غير أثر..

نزلت هذه المرة إلى حلب رُغمًا عن خوفي لعلّي أجِدُ ريحًا يطيب بها قلبي من قوة هذه المدينة التي احتضنت أقوى القلاع والحصون والمساجد وآثار العظماء عبر تاريخها. رافقني عمي عادل وحفيدته صديقتي فاطمة، واستقبلتنا في منزلها أخته وأخت جدي يعرب الخالة "أم عُمر".. كان بيتها سالمًا إلا من دخان الحريق، يتوسط الخراب في حي الجَلوم في حلب البلدة القديمة.. كاليتيم هذا البيت العربي الأصيل، نجا وحيدًا وسط الركام من الأحجار المحترقة من أنصاف المنازل أو ركامًا لمنزل بأكمله.. بقايا ذكريات أهلها من صورٍ رحل معها حلو الذكريات، والدُمى محترقة تكاد تختنق من بين الأنقاض، دُمى وحيدة من دون طفلٍ أو طفلةٍ ينتشلانها ويحييانها من جديد.. لا شيء يبعثُ على أنها حلب التي أعرفها.. لم أجرؤ على الخطو من المركبة إلى بيت خالتي "أم عُمر" خوفًا من ملامسة خطو الراحلين قهرًا وجورًا.. خوفًا من الدوس على دماء وأشلاء أبرياء اختلطت بتراب وحطام المُهَجّرين رُغمًا ورَهَبًا فيراودني شعور العتاب من ذنبٍ لا أحمله من آثارهم التي قسمت ظهر العزيزة الشهباء.. من نداءاتهم بغياث المُستضعفين بلا مُجيبٍ ولا مُعين.. تقدمت خالتي "أم عمر" وأخذت بيدي إلى داخل البيت.. لم تكن جلسةً هنية كما الأعوام الندية حول بحرتها المُضلعة.. كان صمتًا يفرض علينا أن لا مكان هنا للحديث عن أي شيءٍ سوى صوتُ الأنفاس الباردة الباهتة.. مدينةٌ اندثرت حضارتها تحت الأنقاض من هول آلام من لا حول لهم ولا قوة، فإذا بنيرانٍ وأسقف هَوَتْ على رؤوسهم فباتوا في ديارهم جاثمين.. أو من فظاعة الشر فزعين مُهاجرين

رُغمًا عن البقاء وسط الأشباح وحُطامٍ سيلاحقهم بالشوق والحنين..

كان طعام خالتي "أم عمر" حساء الفاصولياء بالصلصة الحمراء والأرز.. ذكرني اللون بالدم فاشمأزت نفسي.. أكلت الأرز وتركت الحساء بحجة أنها تسبب الحرقة لمعدتي.. تناولته من دون جوعٍ أو شبع.. كنت فقط بحاجةٍ للنوم، دخلت الغرفة التي خصصتها لي الخالة.. أول ما لفت انتباهي تلك النافذة بستارة بيضاء.. شعرت بالخوف مما ورائها من خراب وربما أرواح ناقمة ساخطة.. استلقيتُ وأنا أراقب النافذة.. خبأت وجهي بالغطاء وأرغمتُ نفسي على النوم الذي سيُبقيني بمعزلٍ مما ألاقيه من حقيقةٍ مؤلمة لمدينةٍ كان أسمها حلب.. وستَبقى حلب الشهباء..

استيقظت على صباحٍ لا مرحبًا فيه ولا ابتهاج من شمسٍ أطلت على استحياء وحِداد.. لكن.. كيف سألقي تحية الصباح على أهل البيت.. أهل حلب.. أصباح الخير أم عظَّم الله أجركم وألهمكم الصبر لتجاوز حقيقة مرة لحياةٍ لا يعلمون ماهيتها وما ستفرضه من ثقلٍ على ما لا يطيقونه.. خالتي أم عمر شقيقة جدي وعمي عادل.. والعتمة التي أطلت على بيتها من توالي قصص الغياب موتًا.. غيابًا لا وجه له.. ابنها المُقعد خوفًا من الأهوال وقد سُلِبَت قوة شبابه لأجلٍ غير معلوم، أما زوجها الذي لفظ أنفاسه تحت أنقاض القذائف.. زوجها التاجر عمي "أبو عمر" شريكُ متجرنا في خان الحرير.. رجُلٌ تقيٌّ هنيٌّ ذو صوتٍ حلبي شَجي بالقدود الحلبية وتجليات ترتيله آيات القرآن الكريم فجرًا.. أذكر كرمه وترحيبه وليالي الأنس في كل عامٍ من زيارتنا لبيتهم الحلبي العريق أنا وثُريا وفاطمة..

تناولنا فطورنا.. واستعجلت عمي وفاطمة وعمر للخروج إلى متجرنا في خان الحرير، وطلبت منه زيارة إلى الجامع الكبير.. الجامع الأموي الحلبي.. أو جامع بني أمية، كانت وصية جدتي.. أن أطمأن على صور جدي المعلقة في متجر الخان بنجاةٍ من الحريق أو السَلب.. بقايا ذكريات الشرفاء التي تحملنا سندًا يُعين على الخير والحُب القادم.. ووصية جدتي أن يُوهَبُ رزق المتاجر في دمشق وحلب للمحتاجين..

رافقني عمي عادل وفاطمة وعمر.. لم يكُن الطريق إلى الجامع الأموي إلَّا سفرًا خارج الزمن الذي لا أريد أن أقصده.. ومَن مِنّا له الحقُ في اختيار أقل ما يُراد في منظومتنا من عَيشٍ لا خوف فيه ولا هوان ولا عجز ولا حزن.. وفي منظومتهم لا شيء يبعث لتكون إنسانيتنا أولوياتٌ في وسط هذه الانتهاكات العبثية، أنظر إلى الوجوه التي ضاعت تعابيرها في صراعات الخير والشر.. فلا شيء يُراد إلّا أَمْنٌ من خوف.. ولقمةٌ تسد الجوع.. وسقفٌ من غير سقوط، وهدنة بالتنبيه والإذن بقصفٍ من دون فجأة الذُعر والهروب من سماء تقصف إلى مأمن سماءٍ لا تَغدر ولا تقصف..

كيف سأعزيك يا حلب... ساحة الجامع الكبير المُثقلة بالرُكام والحريق.. ومأذنتك الشامخة هَوَت انكسارة العزيزة وحُطامًا بِعَبثٍ أحاط البشر والطير حتى روح الحجر.. سأقول لا بأس عليكِ يا أموية.. أتذكرين ما أحاط بك من أهوال وخرابٍ على يد ملك الروم "نقفور فوكاس" عندما هاجم حلب بعد الحصار المحكم، وشهدتِ أعمال نهب وحرق استمرت لسبعة أيام متتالية، وجاء الحق وتم ترميمك على

يد سيف الدولة الحمداني... أتذكرين عندما استولى عليك التتار سنة 1259 بقيادة هولاكو، وأحرق حائطك في المسجد القبلي، فأعاد بناءه الملك الظاهر بيبرس، وأقام له سقفًا متقنًا سنة 1280، وعاد التتار وأحرقوك مرة أخرى واحترقت سقوفك وأُعيد ترميمها سنة 1285.. إذًا للأمل بقية.. وللنصر بقيةٌ من راياتٍ ستعلو مآذنك عن قريب.. إصْبِري يا شهباء.. مكتبة سُر مَن قرأ

من وسط الرُّكام والحريق أشار عمر أننا وصلنا إلى متجر جدي وجدتي في خان الحرير.. ها أنذا مررتُ به ولم أعرفه من دمارٍ أضنى معالمه حدادًا أشهَدُهُ.. مررتُ من الخان والبوابات الحديدية الحامية عن اليمين وعن الشمال أُعزيها وتُعزيني، وأنا مطأطئة رأسي رفضًا لصورٍ تُصارع جميل الصور المُتبقية.. لا إجلال ولا إكبار أمام حجارة الخان المُبَعثرة حرقًا واندثارًا.

أخرجت مفتاح المتجر من جيبي.. كان المفتاح باردًا والأقفال كذلك.. استعصت البوابة لفتحها بسهولة.. تلطخت يدي وملابسي بالدخان.. شهقت حمدًا لله.. كل شيءٍ على ما هو عليه.. صور يَعرب ورفاق حلب كما هي.. مسحت بطرف شالي الغبار عن زجاجها وإطارها.. حررتها من الجدار واحتضنتها وخبأتها في المركبة... وسلّمتُ المفاتيح لعُمر.. لَفَتَ انتباهي من أمام متجرنا ذاك العم السبعيني وزوجته.. بذقنه البيضاء وردائه الشرقي وظهره المنحني من تعبٍ وهمٍّ أَبْكَرَ إنْحِنائَتَه، بملء قوته كان يلملم الحُطام بعيدًا عن حدود متجره.. أصلح ما أفسده قصف القذائف والرصاص من جدران مثقوبة وأجزاء

مُهترئة، انتقى من الحُطام ما يَسدُّ خلل الجدران.. حينها فقط خجلت من ضعفي وعجزي.. هَمَمْتُ لمُساعدته إلى غروب الشمس من دون إذنه بنقل ما تبقى من الركام، رحت أنا وفاطمة مع زوجته ننقل المياه من الخزان المجاور لتنظيفه من الأتربة، ساعدهم عمي عادل بنقل بضاعتهم من بيتهم الذي تبقى منه غرفةٌ وشبه مطبخ.. رتبنا البضاعة بكل أناقة.. نفذت قوانا.. وتناولنا العشاء على ضوء المصباح أمام المتجر.. كان طعام زوجته طيبًا غنيًا بالبركة.. غادرناهم.. وتركوا معي ابتسامتهم وأملهم رغمًا عن شيْبِهِم وانحِناءة ظهريهما وغدر الشر بهناء عَيْشِهم وذكرياتهم...

وفي صباح اليوم التالي ونحن في طريقنا إلى دمشق.. مررنا من الخان.. أراه جالسًا تسنده زوجته ينظران في الفراغ ينتظران زبونًا عابرًا على حين صدفةٍ وأمل.. إفْتَتَحَ رزقه بشراشف مُطرزةٍ بالحرير والخرز.. بالرغم من بشاعة السوق.. من فراغه.. من وحدته ومن واقعٍ قدَّم فيه هذا العجوز ما تبقى من قوته.. إلّا أنَّ في الإرادات المُعجزات، وفي الحُب ما يُعين على المسير أُنسًا من زوجٍ وزوجةٍ وما تبقى من عُمرهما ووفاء عهدهما.. طلبت من عمي عادل الوقوف عند العجوزين ووداعهما.. أهداني العجوزان شرشفًا أزرقَ بتطريز خرز اللؤلؤ.. وأنا اشتريت ثلاثة مثلها.. وَدَّعْتُ حلب واستودعتها وأهلها الله..

اتجهنا إلى دمشق.. وفي صباح اليوم التالي رجعتُ إلى بيتي في جبل اللويبدة في عمَّان ليكون لقلمي نصيبٌ من بوح ما يعتلج به الصدر في ليلة شتائيةٍ قمراء.. لإكمال روايتي الثانية..

يَضيقُ القلب شيئًا فشيئًا إلى آخِرِ حلقة ضيقٍ ومَخرج، وتنتَفِضُ الروحُ كَمَوجٍ مُتلاطم لا يعرف وجْهَتَه، وتَنْفَرد الذاتُ مع ابتلاءاتها فلا يعود للوصل البشري سبيلٌ للعون والتخفيف من الآلام التي تصارع حقيقةَ صدق الإيمان وثباتِ العقل للتعقّل والتدبّر وحقيقة الرضا بالقدر، تفيض الأقدار بشرِّها المُغَلَّفِ باللُّطف وكأنها نارٌ سعير، وهواءٌ محجوبٌ عن الأنفاس وطوفان يُعرّي كل ما علق فينا من شعائرَ إيمانية ظاهرية، وقُبحٌ لكل صور جمال الدنيا والآخرة بما لا عَينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلبِ بشر. وهنا يَطفو ما يختلجه القلب وبما تختلط به الروح من حقائق القلب والروح من معاني الحب والإيمان والصدق والصبر التي ما عادت كما عشناها من قبل في زمن الرفاهية والحياة التي تخلو من ابتلاءات حقيقية.

تصفعنا الابتلاءات في أيام متتالية أو أشهر، أو سنين أو إلى أن يطلق الجسد الروح، والأعْيُن تراقِبُ ما تجري به المقادير من خوف وجزع، من دم ولحم يُستنزف بلا رحمة، من ضعف ومهانة، من فراق ولوعة، من كل ما يجردنا من كل معاني الإنسانية والوصل بالحبيب لاستسقاء أسمى معاني الحب والقوة والعون، لعل ذاك الوصل يعين على الصبر والتماس حقيقة الإيمان.. ما عادت السكينة كما عهدناها، ولا الحُب كما عشناه، ولا الصداقة إلا صور جمالية زائفة. كثيرٌ من الوجوه اختلفت والنفوس تقلّبت والقلوب قُيِّدَت بما لا يناسبها من زيف حقيقتها ومن الأمانة الوثقى التي وكلها الله لتُعقَد القُلوبُ عليها.

وفي أوج مواجهة كل ذلك تتكاثر الأسئلة عن الله وأسمائه الحسنى وسر الوجود في غمرة الخوف والجزع والألم والفراق، في خِضمِّ

الابتلاءات والنفس والروح في صراع ما بين التماس السكينة والشفاء من جهة، ووصل الله بطلب الخلاص والرحمة والثبات على الإيمان والتصديق بحكمة القدر من جهةٍ أخرى. وهنا يبدأ الجهاد بما عُقد عليه القلب وتبدأ الروح تبحث عن وجهتها في إيجاد الإجابات عن التساؤلات، تبحث عن فضاء تنثر فيه أثقالها وتَفيضُ بِكُل ما يُناقِض أفراحها، وإن طال السفر في أمواج الخضوع للضعف فلا بد من أن ينكشف البصر وتستنير البصيرة وتستقر الروح إلى حيث خالقها وبارئها. وهنا تغفو أعيننا في كل ليلة من الألم بأمل لقاء نفحات سكينته وشمل عفوه ورحمته وانكشاف لطفه ببصيرة منيرة وقلب مطمئنٍّ راغب غير ساخطٍ، وراضٍ، وروح متجلِّية بحضرة الله..

"مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ.. وما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ"

شتاء 2011 إلى شتاء 2014 – دمشق القديمة

كانت ليلةً ظلماء لا قمر يؤنس حلكتها ولا بريق يُثري رتابة سمائها.. بات النوم لا وصلَ فيه من كوابيس اليقظة، وفزعًا لا بُدّ منه من قذائف تتهاوى عبثًا في سماء دمشق بلا رحمة تستنجد من أماني الخلاص.. النجاة.. الأمان.. وأمنيات بخطأ قذيفة لا تصيب إلا الأرض القاحلة والفراغ بعيدًا عن الأحياء.. بعيدًا عن العزاءات بأشلاء لا نقوى على لملمتها ووداعها..

مَضَت ثلاث سنواتٍ على اعتقال ضياء.. كانت بضع كلماتٍ من مقالة كتبها في الصحيفة المستقلة التي نعمل بها معًا.. هو وأنا وفاطمة وليلى.. بضع كلماتٍ كافية أن تلقي بالبسطاء إلى مصيرٍ لا حُكمَ ولا نور فيه.. أن تُسلط الضوء على الحق وتُظهر الفساد بجرأةٍ لا تراجع فيه، فهذا يعني أن تدفع الثمن وتحيا من أجل أن تدفع الثمن كما يشاؤون.. وتُلقى في زنزانةٍ منسية من دون قاضٍ يحكم أو يسمع أو حتى يُشفق على من لا يحمل ظُلمًا.. بل حقًا لا يغيبُ رُغمًا عن ألسنة اللهب وأسواط العذاب

وألوان الآلام التي تبقى كنُدباتٍ في كينونة الإنسان وهذا إن صَحَّ أن يتبقى منه معنى "الإنسان"..

كان الفرح منظومةً لا تتفرق أو باقةً لا تكتمل إلا بازدحام وتنوع ورودها.. لا تخص العائلة فقط.. بل الجيران.. بل الحي بأكمله.. بل الوطن بسمائه وأرضه وبحره.. الوطن الذي لا يملك خيارًا نسعى إليه ونُريده سلامًا.. فقد بات الوطنُ أُمًا أسيرة وثكلى لا عقل لها لِتَعيَ الحاضر وبلا ذاكرة تعترف بها من قَدَرٍ جائر..

خالتي أم يَعْرُب وعمي أبو يَعرُب.. ووالدا ضياء.. على قائمة الانتظار للمجهول أيضًا لِمَن لا حُكمَ عليه ولا إفراج بيومٍ معلومٍ ليكون عيدًا لهم.. أن تتعدد الاحتمالات بحاله ومنامه ولقمته وشربته.. أو إن كان حيًا أو ميتًا بأنفاسٍ تدل على أنه حي أو على قيدٍ مؤجل للحياة..

حزينةٌ هذه المدينة.. وحزينٌ حيّنا وبيتنا.. انكسارة خالتي أم يعرب لا تغيب حُرْقَتها من الذاكرة.. تحمل خاتم الزواج بيدها اليسرى وإبن ضياء الشقي بيدها اليُمنى.. أين الحب الذي بينهما، ألم يَكُن حبًا تنتشي به حلو الصور والضحكات؟!.. أم ربما كانت قيدًا حررته "لمى" من حُبٍ لا يحتمل انتظارها ولا يحمل شوقًا يزيده زمن الغياب.. أم أن الحُب نسبي ولا شكل ولا قيد يمكن أن يُحكم به.. أم أن المصائب تكشف الحقائق.. لا شيء يتبع المنطق في هذه الكارثة الإنسانية.. فالأخلاق نسبية لا يُتفق عليها.. والعدل لا وجه له وليس حقًا للجميع.. والأحلام سُيِّست ورُوِّضَت حدودها وربما كان مصيرها التخلي مقابل لحظة صدق وحُب وأمن وغفوة استراحةٍ يتبعها فناء وكُل البقاء فيه..

أربعة أعوامٍ من المُضِي قُدُمًا بكل ما أوتيت من قوة وإيمان من دون التفات لوهج ضياء والحنين لوصله.. من انشغالٍ أغرقني في هذه المدينة التي تَغَرَّبنا عنها رُغمًا.. فكانت مصائبنا وهمومنا يقودها خيطٌ واحد هو أن نُحافظ على إنسانيتنا السوية من هول الفتن وأمراض القلوب.. أن نبقى كما نحن على الأقل.. رغم القهر الذي تعجز فيه قِوَانا عن انتشال الغارقين، وهذا المستحيل في أوج الملحمة التي يقودها شِرار الأرض.. فالضحية لا يَعي شيئًا ولا يُريد أن يعرف أسرار وتحليلات الأمور وما تؤول البلاد إليه.. فكل ما يريده أن يَعيش ويهنأ بنومٍ بلا ضمير يؤنبه وبلا ضمير شرسٍ يضمُر الخراب والأرق والفزع والهجران من الأوطان..

ضياء بات حُرًا من امرأة كانت تروضني عنه.. من امرأة أصابها القدر به لتكون حبيبته وزوجته لأجتث من بعدها ذاك الأمل وأعقد القلب إيمانًا بالخير وأدبًا مع القدر.. غضبت من نفسي لمُجرد خاطرٍ لم يكن مروره بنيةٍ من قلبي.. كانت أمنيتي أن يكون بسلام ويحيا بسلام ويعود بسلام.. كانت أمنيتي أن يعود كما هو قويًا، لا بقايا إنسان كما هو حال الكثيرين.

لم يَطُل انتظار ضياء.. فقد أنهى القدر قدرهم بالانتظار في السنة الرابعة من الغياب.. كان تقرير الطبيب الشرعي يدل على أنه توفي بسكتة قلبية.. كان العزاء باردًا.. فالعزاءات في الشام باتت حالًا لا اندهاش فيه ولا راحة منه.. ربما كان راحةً له عند الرحيم.. فالرحمة أكثر ما تحتاجه البشرية في وحل القسوة التي لا تبرير لها سوى أنها جشعٌ لا وجه ولا مُبَرِّرَ له.

مرَّت أيامٌ على وفاة ضياء.. كان الدمع مُحتبسًا يكاد يخنقني.. وقفت على نافذة غرفتي.. البحرة أوقفت نافورتها حدادًا على من راحوا.. والشجر والزهر لا أكاد أميز لونه أو رائحته أو موسم ربيعه.. وقعت عيناي على أرجوحتي التي نصبها لي ضياء ونحن بعمر العشرة أعوام.. كنت أبكي كثيرًا على فراق والديّ وألوم من حولي على استعصاء فهمي لمعنى الفراق.. وقتها أذكر جيدًا كيف كان وجه ضياء كالجلوة التي ترفع الغُمة..

- سارة ماذا لو صنعت لك مرجوحة لتُحلقي في السماء.. أنا متأكد أنك ستفرحين بذلك..

كانت ضحكاتي تملأ أرض الديار.. وضحكاته وهو يؤرجحني بقوة يديْه تملأني عِوَضًا وحُبًا للحياة الجديدة من بعد الفقد، وكأنه كان سفيرًا من أمي وأبي.. من يَعرُب.. ضياء كان جسرًا تخطيت به تجربتي الأولى.. وصدحت في حديقتنا وبيتنا رغمًا عن كل ألمٍ بضجيج الضحكات والأحلام المرجُوة به.. ضياء رفيق طفولتي..

"زهر البرتقال.. زهر الليمون"

ربيع نيسان 2014-2016
الأردن.. عمان

مضى عامان من العيش شبه وحيدةً مع قطتي شامة في مسقط رأسي الذي أُحب.. جبل اللويبدة في الأردن.. في بيت أمي وأبي.. وبيت جدي عدنان وجدتي مُعزَّز من قبلهما.. كان يومًا ربيعيًا ماطرًا.. يومًا أرهبني ببدايته منذ خروجي من بيتنا الدمشقي حتى وصولي إلى بوابة بيتنا العمَّاني في جبل اللويبدة.. الحي ذاته لا شيء تغير فيه.. والأطفال يلعبون حيثما كنت ألعب.. ترقبوا مجيئي بفضولهم البريء وساعدوني لحمل الحقائب إلى بوابة بيتنا.. وأنا حملت براويز صور يعرب وثريا وأصدقائهما.. كان المفتاح دافئًا والبوابة باردةً ومستوحشة من دخولي المفاجئ.. دخلت البيت بغربةٍ لم أعهدها من قبل.. شهقت حنينًا ووحشةً من وحدتي.. الحديقة مليئة بالأوراق الملونة بالأصفر والبني والأحمر والأخضر كذلك.. الشجر والزهر بحاجةٍ لترتيبٍ أنيق.. إسْتَذْكَرْتُ وقع أقدامي مع أطفال الحي في حديقتنا وتحليقنا على مرجوحتي التي أعجزها الصدأ.. إستأنَسْتُ بما استذكرت.. هو ذاته عبق زهر البرتقال والليمون والياسمين.. فصلٌ جديد لا تخلو منه الذكريات..

بيتنا الحجري الوردي ببوابته الخشبية ونوافذه التي تعلوها القناطر الحجرية ويُحيطها الإطار الخشبي المحفور زهورًا، وفي داخل الإطار إطارٌ إضافي بالزجاج الملون.. وأما البيوت الحجرية القديمة في الحي فهي ذاتها لم تتغير تفاصيلها الأصيلة الصامدة على كتف الجبل.. والشجر المُعمِّر يزداد ينعةً بخضرته وإجلالًا برفعته.. فتحت البوابة.. وكانت الرائحة ذاتها منذ واحد وعشرين عامًا.. رائحة الحنين بأعوامٍ معدودة تزيد من حدة شوقنا لإحياء تفاصيل البيت من الهجران والملل.. أزلتُ الشراشف البيضاء عن الأثاث والسرائر.. وافتتحت البيت من جديد.. لم يأخذ تنظيف المنزل مني الكثير، فإطلالة جدي وجدتي على بيتهما لدى قدومهما من نابلس إلى عمان تؤنس البيت الذي يلقى اهتمامًا من دون الإهمال والهُجران.. وزيارتهما لبيتنا الدمشقي من كل عام كانت عونًا لي لألتمس وأتذكر ريح أبي...

كانت غرفة المعيشة وكل زوايا البيت تحتفظ بلمسات أمي بترتيبها وذوقها الكلاسيكي.. والجدار ذاته تتوسطه صورٌ عائلية لي ولأمي وأبي وجدّي.. توجت الصور التي جلبتها معي من دمشق لتجاورنا.. صور يعرب وثُريا وأبطال الثورات.. أما غرفة نومي فلم يتغير فيها شيء من ترتيب أمي أيضًا وبكل ما إنْتَقَتْهُ من تفاصيل أنثوية راقية.. غير أني أضفت لذوقها ما جلبته معي من قطع الموزاييك الدمشقي التي كانت بالأصل تخصها في صباها..

بيت جدي عدنان "أبو جمال" وجدتي مْعَزَّز "أم جمال".. بيت حجري عثماني الطابع، بناه والدُ جدي بذوقه الشاهد على عراقته إلى

يومنا هذا محاكاةً لبيت العائلة الأصلي في قرية عين كارم المُهجرة في القدس عام 1948.. ووهبته أم جدي مالًا من صيغة ذهب عرسها ومن الليرات الذهب المُدخرة.. جدرانٌ احتوت العائلة في عام 1940، كانت حياتهم متنقلة ما بين القدس في قرية عين كارم وعمان نظرًا لطبيعة عمل والد جدي آنذاك في صناعة وتجارة الأثاث، كان هذا البيت الحاني معقل انتظارهم للعودة من بعد لجوءٍ قصري جائر من فلسطين أثناء نكبة 1948.. ليرجع بعد ذلك مع جدتي إلى فلسطين.. وبقي في البيت العمّاني أمي وأبي.. ومن ثمَّ أنا وقطتي شامة وذكرياتهم..

أذكر أن جدي كان يحدثني عن الأيام الخوالي عندما كان يزور القدس من عمان للصلاة في الأقصى، ويرجع في نفس اليوم عبر الباص الذي يتنقل ما بين الكويت، بغداد، عمان، القدس وغيرها من المدن.. غير أن الزيارات العائلية ما بين عمان ونابلس ورام الله وغيرها من المدن كانت من دون حواجز وتفتيشات وسياسات جائرة تنهب أرضًا وتشتت شعبًا وتقطع الوصل وتُلقي بالحسرات في جوف المُنتظرين على عتبات العودة.

لم يتبقَّ على الغروب إلا ساعتان.. وكذلك على وصول ابنة عمي هناء من فلسطين لإكمال دراستها العليا ومشاركتي يومياتي وكسر وحدتي.. أما جدي وجدتي فكانت لهما زيارة شهر من كل صيف.. إسْتَعجَلتُ وألححتُ على نفسي بحاجتي للخَطو والتعرف على ما فاتني من شوارع البلدة القديمة ووسط البلد.. وأجَّلتُ زيارة عمان الحديثة لضيق الوقت ولأرافق هناء، وازداد فضولي ولهفتي لاكتشاف البلدة القديمة والاستئناس بها قبل إسدال الليل ظلمته على الحي..

جبل اللويبدة من الأحياء العمَّانية العريقة.. أحد جبال عمان السبعة.. جبل الوطنيين في الماضي لتجمع السياسيين والوطنيين فيه.. وجبل الثقافة لكونه إلهامًا من تاريخه الذي تشهد عليه أدراجه القديمة وبيوته ذات الطراز العثماني بقناطره وياسمينه..

اخترت فستانًا بلون وردي ومطرّزًا بأوراقٍ خضراء، والتف الشال اللؤلؤي على شعري وصدري، وزاد من جماليته قلادة جدتي ثريا، فأنا في استضافة الحي الذي خطوت على أرضه منذ عقدين وعام في لحظات أذكرها جيدًا مع أبي وأمي في صلاتهما ولعبي حولهما في المسجد وباحته في جامع الشريعة القريب من منزلنا. أذكر جيدًا ذاك المقهى الذي كان بيتًا قديمًا.. مقهى "فن وشاي".. وأذكُرُ جيداً حديث والديَّ الذي لا أكاد أفهمه وشيفرات نظراتهما المُتبادلة، والقهوة ذات الطعم المُر التي كنت أستغرب لماذا يُفضلانها.. فأنا كنت أفضل اختيار البوظة بالفريز.. أذكر ذلك الشارع الخلفي الذي يقع على إطلالة الجبل.. كنا ننتظر غروب الشمس من هنالك.. وأنا أشاكسهما لأتفلت من يديهما فضولًا لأنظر لما وراء الجبل.. كان الغروب الأخير لي معهما.. وكان الشروق الأخير معهما في اليوم التالي في عمان قبل انطلاقتنا لدمشق.. إلى بيت ثُريا.. حيث القدر الذي لا ندري به.. إلى وطني الدمشقي..

"الليلة الأخيرة.. الرسائل الأخيرة.. في دمشق"

شتاء نيسان 2014 – دمشق القديمة

الساعة السابعة مساءً.. دمشق لا تشبه تلك المدينة التي أعرفها.. على بعد بضعة كيلومترات من البيت سقط صاروخ هاون.. الهدف يملؤه ضحايا أهل المدينة المنكوبة.. وقبل ساعتين كنت متواجدةً في وسط الهدف.. عندما أخبرت جدتي بذلك انتحبتْ بكاءً على قدرٍ قَيَّدها بـ "ماذا لو كنتِ هنالك وقتها".. لتهدأ وتستعيذ بعدها من كلمة "لو" وتحمد الله على النجاة.. فتستذكر وتندم لانقطاعها عن البكاء، فتعاود البكاء من جديد على من راحوا من أهل المدينة في هذا الانفجار العبثي..

الساعة العاشرة صباحًا.. القهوة مرارتها تزداد يومًا بعد يوم.. مرَّ وقت طويل من دون طرق ضياء لبابنا بطبق حلوى أو "تسقية".. مرَّ وقتٌ كالطاحونة يستنزف القوى في محاولةٍ للاحتفاظ بذاكرتنا من دون فقدان أو ندم أو كذب.. وفجأةً.. الباب يطرقه أحدهم بإلحاحٍ مُريب.. لم يتبقّ شيءٌ من فنجان قهوتنا إلا الحثل الأسود.. توجهت إلى البوابة بتأنٍّ

يشوبه خوف.. ثريا تتبعني على خوفٍ أكبر.. فتحت البوابة.. شرطي يسأل:

- بيت ثريا خانم؟
- نعم، صحيح..
- حضرتك سارة حفيدتها؟
- نعم؟
- تفضلي وقعي على هذه الورقة، بانتظارك غدًا في الساعة العاشرة صباحًا في الفرع الأمني المُعنون في أسفل الورقة..

"لو كان أبي موجودًا".. خاطرٌ أعجزني بأمنية يتيمة.. لو كان أبي موجودًا لرافقني إلى ذاك المكان الذي لا أعلم مُبررات استدعائي إليه.. في هذا الخراب الذي يزيده الخراب، تتناثر وتتكاثر الأسئلة بـ "ماذا لو" و"لو" والتمنيات بـ "يا ليت" و"عسى" وغيرها من الخيالات من سؤالٍ وأمنية لا تلقى إلا بواقعِ المتاهات الذي يُعيدنا إلى التشبث بأصل البقاء على قيد الأمل والصدق والثبات عليه.. في زمنٍ باتت الأخلاق فيه أصل البقاء بسلام..

مَضَت أربعٌ وعشرون ساعة.. لم ألحظ وجه جدتي بخوفها وإلحاحها بالدعاء من قبل.. وأنا كذلك.. كانت الاحتمالات من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب.. أكان السبب لاستدعائي بصفتي صحفية وزميلة ضياء في ذات الصحيفة المُستقلة.. أم أن العقاب الذي سيقع عليّ من دون جُرمٍ مُسبق ومن دون حُكمٍ يُقضى عليَ به..

اتجهت أنا وجدتي برفقة عمي عادل إلى الفرع الأمني.. في الطريق استذكرت الشام من قبل ومن بعد ذاك الحد الفاصل.. استذكرت الهجرات القهرية من كل صوب.. الهجرة إلى الموت.. إلى الغربة.. إلى الاعتقالات التعسفية.. الهجرة من الحياة التي يريدون بأحلامهم.. من الذكريات التي أُجهضت مقابل كُل أشكال السلب لإنسانيتهم وكرامتهم.. ومن أغلى ما يملكون.. كانت تغريبة تبعث على الذهول من اللامنطق والواقع الذي وصلنا إليه.. كانت تغريبةً حقيقية ومُرَّة ولم تكن خيالًا.. أكثر ما أثار رعبي عندما مررنا بساحة "برج الروس"، كنت أظنه كما الكثيرين أن سبب تسميته ربما يعود إلى روسيا بمناسبةٍ تاريخيةٍ ما، لكن تبين لي فيما بعد أن سبب تسميته بذلك يعود إلى عهد احتلال هولاكو لدمشق، إذ كان يقطع رؤوس الرجال ويسبي النساء، ويقيم برجًا عاليًا ليعلق عليه الرؤوس ليُثير الرعب والخوف في نفوس أهل المدينة، ونتيجة لتعريبها باللهجة الشامية سميت برج الروس. إذًا كانت ابتلاءات دمشق متوالية، ونصرها بالحق سيكون كذلك مهما طال زمن الاستبداد والاستعباد والطغيان..

في طريقنا.. جاءني اتصال من مديري في العمل رئيس تحرير الصحيفة، كانت دعوةً لأحضر وأُلملم حاجياتي الخاصة من المكتب والتوقيع على قرار فصلي من العمل، سألته وأنا أرتجفُ من صدمةٍ لم أستوعب أسبابها.. أجابني بأنه لا يُريدُ مزيدًا من الصحفيين وكل همه أمن الوطن والمواطن.. فامتلأ صدري شهيقًا وزفيرًا مُتَسارِعَين، وكتمت دمعي بقوةٍ أظن أنّ مصدرها قناعتي بتوقّع كل شيء في هذه الفوضى

اللاإنسانية.. أمن الوطن والمواطن والحياد عن كلمة حقٍ تُقال، ما هي إلا سياساتٌ وأسلوب حياةٍ لمن لا يمتلك الشجاعة ولمن يُريد أن ينام مرتاح الضمير الكاذب بتهربه من حقيقة ما يجول من ظُلمٍ لا نُكران فيه، بل وربما دفاعًا عنه لحاجات وأسباب أنانية.. تذكرت وجهتي إلى ذاك الفرع الأمني.. ضعيفةٌ بحُجتي ولا تنفع الحُجج البيِّنة على طاولة الجلاد.. وأيقنت أنه لا حول ولا قوة لي إلا به هو الله..

انتظارٌ جديدٌ لثُريا.. دخلت الفرع على خوفٍ واستسلام، أو ربما تسليمًا لله بكل ما هو آت.. ساعةٌ من التحقيق بأسئلةٍ سطحية عن يومياتي ونشاطاتي.. وأخرى عن مقالاتي التي تصب في صُلب قضايا الفقراء وأصلها الفساد والفاسدين.. وآخر سؤالٍ كان عن علاقتي بضياء، فأجبته بأنه كان جارنا وصديق الطفولة وزميل المهنة التي شهدتْ له بالحق والشفافية والشجاعة والوطنية والنزاهة، غضب المحقق من مديحي لضياء، فتح درج مكتبه بنظرات الغضب والشك وأخرج ورقة بيضاء، إعْتَصَرَها بيده وأهابَ بي أنْ أقرأها على عَجَل، كانت لحظات قراءة كلماتها بمثابة نجاتي، فوجوده قربي في هذه اللحظات التي تضيق بي كانت عونًا وقوةً، إنها رسالةٌ من ضياء كتبها لي قبل وفاته بيوم واستأمن سجَّانه ليرسلها لي من بعد توسلٍ وإن كان الأمل عقيمًا، حذرني المحقق بأسلوب التهديد قائلًا:

- إياكِ والثقة الزائدة بنفسك، تخلي عن قضايا الفقراء والفساد، نحن أعلم منك بمصلحة الوطن والمواطن، ويبدو أنّ هذه الورقة كلام فارغ، احمدي الله أنه مات، لو لم يَمُت لكان

حسابنا معك سيأخذ مسارًا مُختلفًا، خذي هذه الورقة فالمقابلة انتهت.

حمدتُ الله على نجاتي، وحمدته ثانيةً على وصلٍ ظننته انقطع بل انطفأ من كلماتٍ خَطَّها ضياء، وفرحة ثريا لم تَسَعْ كونها، فهي لا تقوى على الفقدان والانتظار من جديد..

كان قدرًا يحمل في طياته رسالة أمل في وسط اليأس الذي يحتوينا.. أن يأتيك فرحٌ مفاجئ من دون انتظار، أو بانتظار، لكن بصورة مغايرة لم تكن من نسج خيالك أو توقعاتك.. لم أرَ الابتسامة على وجه ثُريا منذ زمن ليس بقريب، طلبت ثُريا من عمي عادل أن يوصلنا إلى الجامع الأموي، وطلبت مني أن نخْطو معًا في شوارع الشام القديمة وصولًا إلى بيتنا فهي تشتاق وتَحِن.. جلوةٌ أصابتني من طلبها لعلها استفاقةً من عجز كاد أن يفتك ويَخور في قِوانا وحبنا للحياة في زمن الهزيمة والحداد..

كانت كالملكة لدى دخولها سوق مدحت باشا.. التجار يرحبون بها بكل تعظيم وإجلال من كل صَوب.. جَلْسَتُها على مكتبها في المتجر أكملت هوية وقصة مكان وزمان الموزاييك.. كان سلامها طيبًا لكل زقاقٍ وشارع وكأنه وداعٌ وإشهارٌ بالرحيل.. تطيبت من كل شجرة ياسمين تمر بها من بيوت دمشق.. كانت نشوة وجلوة الحياة تنبعث من دمشق إلى روحها أو ربما من روحها إلى دمشق، توسطت باحة الجامع الأموي وهديل الحمام يصدح بقدومها وكأنه اللقاء الأخير الذي ارتعش له قلبي.. صدح المؤذنون بأذان الجوق.. امتلأ الكون بنداء الحق.. أتممنا الصلاة في حضرة السكينة والجلال.. أشارت ثريا إلى إحدى

المآذن الثلاث.. مأذنة سيدنا المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام وقالت:

"والله أعلم.. في آخر الزمان سيتنزل المسيح عيسى السلام بالسلام على أهل الأرض، على جناحي ملك عند المنارة البيضاء.. فلا ظلم ولا حزن ولا طغيان.. هو حديث للرسول المصطفى الكريم محمد (صلّى الله عليه وسلّم) يقول فيه:

(فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ).

هي اعتقادات أهل الشام واجتهادات العلماء بمكان نزول سيدنا المسيح.. لم يلفت نظري اختلاف مكان نزوله فهذا حق لا اختلاف فيه وقائم وحتمي القدر.. ما لفت نظري أكثر هو ذاك الجمال الذي سيتنزل به.. الجمال والجلال من جناح ملاكٍ عن اليمين وعن الشمال.. ذلك الوجه الجميل والشعر اللؤلؤي الذي سيشفي صدور قومٍ أهلكهم وأيأسهم الحزن والقهر والكره.. ذاك الجمال الذي لا قُبح ولا أثر للطُّغيان وأهله من بعده..

كان يومها خطونا الأخير معًا في دمشق القديمة.. كان عشاؤنا الأخير في أرض الديار بحضور بحيرتها، وإيوانها وحجرها، وزهرها، وشجرها، وضوء قمرنا، وبحضور قطتنا شامة أيضًا.. كان وداعًا مهيبًا في حضرة الجمال وثُريا، في فجرٍ لم أعهد من قبله ولا بعده المعنى الحقيقي للوحدة والخوف من الفقدان، من وداع الحياة من دون رفيق

أرافقه في طقوس استحضار الذكريات للزمان والمكان بمن كانوا فيه فردوسًا لا خريف فيه..

طرق الباب للمرة الثانية طرقًا حانيًا.. في هذه الحياة صرتُ أُفرق جيدًا أصوات الطارقين ووقع أقدام العابرين والزائرين.. إنها ليلى.. جاءت تحمل صندوق كل ما كان يخصني على مكتبي في العمل، أن تُسلَبَ من مُحيط الذكريات المُتبقية والشغف الذي يُملي علي حياةً وهبتني حملًا ثقيلًا بإنصاف القضية بالحق، ذاك المكان الذي قضيت فيه كل التطورات المهنية والشخصية، تلك الذكريات مع ضياء وفاطمة وليلى.. لكن لا يُعَوَّل عليه من ما تبقى من جدران ومكاتب فارغة وباهتة من دون الأيدي والقلوب الطاهرة.. منذ أن غادر ضياء.. ومن بعده فاطمة.. وها هي ليلى تودعني وداعًا يَصُبُّ بالحُرْقَةِ والحَسْرة على الفقدان المُتكرر من دون استراحة أو تعويض، وهل هنالك تعويضٌ للأرواح المُغادرة بقهر وبذكرى يشوبها الأسى، وداع ليلى بسفرها إلى وجهةٍ لا تعلمها مع عائلتها، هربًا مع ما تبقى لهم من دون سلبٍ قادم لأغلى ما يملكون.

كان فراشي ليلتها نَدِيًا.. إسْتَلْقَيتُ كالجنين الذي يلتف حول نفسه وكأني أريدُ أن أختبئ وألجأ إلى مأمنٍ وحضنٍ أكاد أعتصره من بقايا الخيال التي أفسدها واقعٌ يفترس حَقنا بأن نعيش بكامل إنسانيتنا.. لاح بصري لسقف غرفتي المقوس بقبته المُزخرفة وكأنها حضنٌ واسعُ الصدر.. إرْتَسَمَتْ عليها صورة متحركة من انعكاس ضوء البدر المكتمل ببريقه.. وارتسم خيال بضع نجماتٍ يتزاحمن على قربه..

والكثير من خيال الياسمينات المُتراقصات من النسيم المُحتضنات لشباك نافذتي.. كنت أحتفظ برسالته بين أوراق رواية "ما تبقى لكم" إحدى الروايات للكاتب الفلسطيني غسان كنفاني رحمه الله التي أرسلتها لي ابنة عمي هناء عند زيارة جدي وجدتي من نابلس، قرأت رسالته مرارًا حتى استسلمت نومًا:

"بلغي الشام سلامي ولْتكُن قوتها صبرًا تتجرعه وحقًا تناله استحقاقًا وشرفًا.. وأشهديها بأني لم أخن الوطن يومًا، فكيف أخون وقد كان قلمي وورقي وكلماتي بغية الحق شاهدًا على دفع حياتي مهرًا لأكون عريسًا في سمائها مع المُحلقين بأجنحة الحب والسلام حقًا.. بلغيها أني حُرٌّ في هذه اللحظات.. وأني أشتاق لحياةٍ أعودها فتكون عرسًا وزينةً نضيء بها قناديل الحُب والنصر في ساحاتها وزقاقها ونَرُشُّ الياسمين من أعلى قاسيون وفي بردى وتيجانًا على شعر جميلات حرائر الشام.. أوصيكِ بالصدق والثبات على الصدق.. أوصيكِ أن لا تيأسي من الحُب والجمال في خِضمِّ البشاعة والكذب.. فقط لمن يستحق.. كوني شجاعة.. نقية القلب رُغمًا عن كُل التناقضات والتخليات.. أتذكرين شعارك.. احفظي الطفلة التي في داخلك.. فذاك الطفل هو حمايتنا"..

صَعَدَت روحي عند بارئها، فإما يُمسكها بالحق وإما يُرسلها لتُحيي جسدي بنور يومٍ وليد لإكمال الحكاية، نورٌ أبصره وينبعثُ من جديد من نافذتي وفي كُل تفاصيل ما حولي في غرفتي.. سمعت صوت أحدهم يطرق باب بيتنا، إتَجَهْتُ نزولًا بالدرج نحو حديقتنا، البرتقال والليمون والسفرجل يملأ الشجر والأرض والموسم ليس موسمه، كان الطريق

طويلًا وكنت خفيفةً وكأني أمشي في الهواء، مدخل البيت يملأه النور، سبقتني جدتي وفتحت البوابة، إشْتَدَّ النور أكثر وأكثر، والوجوه تظهر أمامي بوضوحٍ، كانت أمي وأبي وضياء واقفين خارج البوابة عن الشمال وعن اليمين، وكان يعرب بعمره الثلاثين، إذًا يَعرُب رجع وجدتي ستنهي عهد الانتظار باللقاء والوصل بالحبيب، خرجت جدتي من البوابة باتجاههم، ركضتُ نحو البوابة لأتبعهم لكن الطريق يطول ويطول ولا سبيل للوصول، والبوابة تتسع أكثر فأكثر، وقفت جدتي بجانب يعرب، التفتتْ بوجهها الثلاثيني الذي لا هرم فيه ولا تجاعيد أحفظ خطوطها جيدًا، إبْتَسَمَتْ لي، فاقتربت مني بسرعة البرق، ألبستني أغلى ما تبقى معها من يَعرب.. قلادته التي تحمل صورته ونُقش عليها اسمه وتاريخ لقائهما، نادى يعرب باسمها مُشرعًا كفه لها يدعوها إليه.. إخْتَفَتْ وتراجعت وأمسكت بيده، اختَفوا تدريجيًا حتى غابوا في النور.. وصلتُ إلى البوابة ولم أجد إلا أثر النور يشتد ويَعرُب يتقدم نحوي من بعيد حتى اختفى أثره مع النور، فما تبقى إلا الحي المُوحش والفارغ من أثرهم.. ركضت في الزقاق بحثًا عنهم.. سقطت في الفراغ... صرخت.. شهقت.. صحوت.. كان حدادًا مهيبًا لوداع دمشق القديمة وبيتنا وهديل الحمام ومآذن الشام لثُريا.. لوداع جدتي..

"رسائل الحُب والحرب.. بين القدس ودمشق"

"الرواية التي لم تكتمل"

عمان - اللويبدة.. شتاء 2015

قاربت على إتمام روايتي التي أسميتها "رسائل الحُب والحرب بين القدس ودمشق".. جلست مرارًا على شرفة بيتنا والقلم لا يكاد يخُطُّ أي كلمةٍ في محاولاتٍ عقيمة لإتمامها.. ذهبت إلى مقهى "فن وشاي" وحاولت، لعل الكلمات تسعفني على طاولتي المفضلة التي بجانب البيانو وحوض السمك وأنغامٍ فيروزية، ومن ثم خرجت إلى الشرفة الخارجية فكان الجو باردًا، فاستعصت أناملي على المحاولات كذلك، لم تكن المحاولات ناجحة لاستفاضة تلك الكلمات التي ستكتمل بها القصة المُوثقة لحكاية ثُريا أو حكايتي مع حكاية ثُريا، لكن كان هنالك شكٌ وإحساس أؤمن به وهو أن الرواية لن تكتمل إلا بقدرٍ قادمٍ سيُضفي على القصة لقاء من بعد غيابٍ وانتظار. هُنالك لَحنٌ مفقود سيُرتب الكلمات لتكون وقْعًا من الحُب على القلب بِتَجلٍّ ونبض جديد، وربما هذا ما يمنعني من مواصلة التدفق الذي يكاد يضيق بي.. سيكون قدرًا

مُنيرًا بقناديل تُنير عتمات بيتنا الدمشقي وسيعيد رواية حكاياته.. لا أعرف ماهيته لكن يكفي أن أتبع ما يمليه عليَّ قلبي باتباعه من إشارات بمعية الله.

في الكتابة.. أغيب عن الوعي المُلازم ليومياتنا الرتيبة، من أحداثٍ لا رحمة فيها تفرض حقيقة الواقع على حرية الخيال رُغمًا عن إرادتنا، أتوسل القلم ليُملي ما يجول بفكري ويتغنى به قلبي ويصدقه عقلي، في طقوس الخلاص من قيود المنطق وواقعٍ نلتزمُ بتقبله عنوةً بلا عجز. في الكتابة فقط أُوثقُ حكاياتٍ تستحق أن تُروى في زمن المُتألمين، فنقرأ لنحيا.. ليكون وصلًا تتناقله الأجيال المُريدةُ للحياة التي نستحق.. فالكلمة التي تنبعث بالأصالة والحُب والأمل ربما تكون مفتاحًا لذاك القفل الوهمي من الوحشة وتحديات ومنغصات الحياة التي تتراكم كحاجز عجزٍ وهمي يمنعنا من المُضي قُدمًا نحو الحياة السامية.. فحكاياتنا تستحق أن تُروى..

وصلت إلى البيت شبه مبتلةً من المطر الذي تشبثت قطراته بفستاني وشالي وأنا في طريقي مغادرةً مقهى "فن وشاي"، كنت محظوظةً بهناء.. ابنة عمي الهنية بطبعها، أحب لهجتها الفلسطينية التي تتبع لطائفة اللهجة الشامية الجنوبية، سماعها وحوارنا يُضفيان على أحاديثنا معًا كسرًا للروتين في جمالية لهجتها وطرافة أحاديثها، وأنا كذلك وجَبَ عليّ تعلم لهجتي الأصيلة بمحاولاتي مناقشة هناء بلهجة الفلسطيني الفلاحي، خاصةً بقلب حرف القاف إلى كاف، لكن يبدو أن تعلمها يحتاج تدريبًا مطولًا، فهناك لحنٌ مميّزٌ يخرج مع قلب الحروف وطريقة

إنهاء الكلمات ومدّ الحروف. فالمقدسيون لهجتهم تختلف عن الخليليين أو النابلسيين وهكذا..، لذلك تعمدتُ ضاحكةً على نفسي ترديد الكلام من وراء هناء، وفي المقابل كانت هي تقلدني وتجيد اللهجة الشامية والحلبية جيدًا. في آخر حوار معًا في محاكاة اللهجات شكوت لها استعصاء قلمي على إتمام الكتابة، فإقْتَرَحَتْ عليّ سهرة شاي وحلويات من صنعها في غرفة المعيشة لنبحث أكثر عن سر الاستعصاء، سألتني هناء وهي تتمعن بالصور الحاضرة على الجدار:

- سارة أنتِ تأخرتِ في إصدار الهوية الفلسطينية والبطاقة الصفراء، ستمنحك الهوية حق الزيارة والحياة في فلسطين.. ألا تشتاقين إلى زيارة نابلس؟ إلى زيارة بيت جدودنا؟ و أيضًا إلى زيارة القدس للصلاة في الأقصى. أنت مجنونة ومُقصرة كفاية لتأخرك عن إتمام هذا الحق، حق وخطوة تستحق الاستعجال فيها؟!!

نعم، أذكر تمامًا أن أبي حفظ لي حق وطنيتي والحياة على أرض فلسطين بانضمامي إلى هويته "لمّ الشمل" حيث تُمنح للأردنيين من أصل فلسطيني، لكن كان واجبًا عليّ أن أخطو خطوة إصدار الهوية الفلسطينية والبطاقة الصفراء في عمر السادسة عشرة وأنا الآن في عمر التاسعة والعشرين، واجبٌ وطني لا يقبل التأجيل ولا التجاهل، وإلا فنحن بذلك نقدم تنازلات للاحتلال الصهيوني، تنازلات بحلمٍ وردي بالخطو على أرض الشهداء والأنبياء والمرابطين حقًا والعاشقين للوطن، ربما كان السبب في التأخير من ما مضى من أعوامِ عمري في دمشق وطبيعة الحياة

التي كانت هبةً لي في حضن جدتي ثُريا، فغَيّبت عني تلك الخطوة التي تأخرت عن اتخاذها ثلاثة عشر عامًا، المهم من كل ذلك أن عزيمةً وهمةً تدفقتا من وهج لهفتي لإصدار الهوية ولأُكمل الخُطى من دمشق.. فعمان.. وصولًا إلى أرض فلسطين. تذكرت تلك الكلمات التي وقعت في قلبي مُستقرًا ومقامًا، فمنذ أيام بدأت بقراءة رواية "أعراس آمنة" للكاتب الفلسطيني إبراهيم نصر الله، ذكر فيها أن هنالك أسطورة فلسطينية تقول إن الله يخلق الإنسان من ترابين، تراب المكان الذي وُلد فيه وتراب المكان الذي سيموت فيه، أثارت هذه الكلمات ما أوصتني به ثُريا، وانْتَابَنِي ذاك الشعور بالشوق لأخوض تجربةً بل هبةً وهبها أبي لي، كتبتها بخطٍ جميل على قصاصة ورق وزينت بها جداريتي، كان لي أكثر من وطن والهمُّ واحد يُثريني بمسؤوليتي اتجاه قلمي وورقي وكلماتي ووطني واتجاه كل إنسان صاحب حق، حتى أجد جنة المنتهى في شرف إقامة الحق شجاعةً، تنبأت من قبل بعصي قلمي ودمعي وأنَّ للحكاية بَقِيَةٌ من الأقدار المُنْتَظَرَة على مهل، في عيوني المُطلة على القادم شوقًا وحبًا على أرض فلسطين.

نعم هكذا أوصتني جدتي، أن آخذ من تراب قبرها وأرشه في مياه بحيرتنا وزهرات الياسمين، وإن شاء القدر أن أجد ريح يعرب في ديار الحق أن أنثر ريح تُرابها الياسميني على تراب قبره، وأن آخذ من تراب قبره وأنثره على تراب قبرها، وأما إن كان حيًا فأوصتني بأن ألقي عليه العتاب والسلام وأُرجعه إلى بيتنا الدمشقي وأن يرقد بجانبها حين يشاء القدر له بالرحيل..

"رسالة من ليلى..
برلين المدينة المُوحشة"

عمان - اللويدة.. شتاء 2017

"عزيزتي سارة.. وصلني منك مئات الرسائل عندما فتحتُ بريدي للمرة الأولى منذ ستة أعوام.. حينها فقط أدركتُ ما معنى أن يكون الصديق لحوحًا، ومرتبكًا، وخائفًا، ومُشتاقًا لصديقه الغائب.. رعشةٌ أصابتني وبكاءٌ باحتضان كلماتك التي ترجو الاطمئنان عني..

أتذكرين ليلة العشاء الأخيرة لي في دمشق 2010، أنا وأنت وفاطمة في بيت جدتنا ثريا، كان حفل تهنئة لخطوبتي على عامر ابن عمي في حلب، ست سنوات تتقاذف بنا الأهوال والويلاتُ، أتذكرين بيتنا العربي الحلبي ببحرته وسهرات الأنس فيه.. لم يَعُد يشبه ما كان عليه.. لم يتبقَّ سوى الأنقاض التي وُئِدت فيها ذكرياتنا وأحلامنا، وباتت الخيبات ومشاهد الوداع للماضي العزيز يفرضها الحاضر الذي طمس معالم الجمال والذكرى الوردية فينا.. لم يكن وداعًا بل اجْتِثَاثٌ من حضن الأم فزعين مذعورين في الطرقات الباردة بين أصوات الرصاص وصراخ الأطفال الجائعين، أمٌّ وأبٌ يركضان جنونًا إلى ملاذٍ يقي جثة طفلهما من

الموت بردًا وجوعًا وعطشًا.. ثلاثون أحياء هربنا من الموت والقهر، وفي الطريق قنصنا البرد والجوع فلم يتبقَّ منا إلا سبعة أرواح تُصارع البقاء مع ما تبقى من آمالنا المَرجوة.. لم نستطع دفنهم فالأرض صلبة والأيادي ازمهرّت من الصقيع.. كان وداعًا ينتزع منَّا الروح مرارًا ما بين صراع البقاء أحياءً والعذاب بواقع ينتزع معنى حُلوَ الحياة والمُضي رُغمًا أحياء بلا روح، في الطريق كان وداع أمي وبعدها بيومين كان وداع أبي حسرةً على رفيقة العمر.. لم يبقَ معي إلا أخي وأختي الصغيرة وخطيبي عامر..

وصلنا إلى الحدود مُندهشين من النجاة بأقدامٍ تحملنا جُثثًا لا روح فيها.. كانت الخيامُ بشعة وباردة مع بضع أغطية، كنا نغمض أعيننا ونستحضر بيتنا الجميل وحياتنا الأولى، كان موسم الفواكه الصيفية التي أشتاق لمذاقها.. لم نُطل البقاء في الخيمة لأكثر من سنة، فالبحر كان على موعد أملٍ يحملنا إلى الضفة الأخرى من العالم، مغادرين عالم الخيم القذرة الذي يفرض علينا طريقة عيشنا وأفق حلمنا. كُنا نملك غرامات من الذهب مقابل قاربٍ مطاطي وساعتين من الإبحار إلى الجهة المقابلة، كانوا يُتاجرون مُقابل فرصة حياةٍ نتوق لها اشتياقًا بلا انطفاء للرحيل إلى ما نظنه نعيمًا، كان عددنا يفوق الخمسين حالمًا على قاربٍ واحد، وكانت الشمس حارقة والوجوه ناظرة إلى ذاك الأفق الذي ينتظرون بزوغ شمسه على أرض الأحلام، يطؤونها تاركين خلفهم ماضي الخيبات ومُرَّ الذكريات بحسرات على هجران حبيبتنا الشام. اقترب نحونا قارب من بعيد، انتقلَ التاجر الذي يقودنا بوعده للوصول

إلى القارب الآخر، وابتعد وابتعد، أطلق رصاصةً على القارب الذي يقلّنا وابتعد القارب الذي يقلّه أكثر حتى غاب مع وعوده الكاذبة.. تناثرنا خمسون إنسانًا نتشبثُ بالهواء وبصرخاتٍ لعلها تنجدنا.. مرت ساعاتٌ من نار الجحيم في وسط البحر، غبتُ عن الوعي ذُعرًا.. وصحوت في السرير وعلى موجز وفاة أختي وأخي.. لم يبقَ يا سارة من عائلتي إلا عامر وذكراهم التي لا يطيب لي ذكر الأسى الذي يشوبها.

عزيزتي سارة.. أنا وعامر بخير، ورُزقنا بمولودة أسميناها نور، برلين المدينة التي نعيش فيها لا تشبه دمشق وحلب ومن نُحب.. برلين موحشة ولم أنجح إلى الآن بمحاولات التعايش وإثارة شغف استكشاف جمال المكان والزمان بتجلياته كما كُنا في حضن الوطن.. سنعود يومًا ونلتقي على أمل"..

"الحُب الذي يُفاجئنا إذا ما أقْفَرَ القلبُ"

عمان – اللويبدة.. شتاء نيسان 2016

هذا الوقت من العام الذي لا أرغبه وأنتظر تجاوزه؛ غادرتْ هناء إلى فلسطين في الإجازة الشتوية. ذاك القلق المُزمن من البقاء وحيدة مع قطتي شامة ومع ما تبقى من ذكريات صورهم، البركة بوجودهم لا تعدل شيئًا، فقي ثقافتنا وتراثنا كعرب فإن وجود الجد أو الجدة.. الأم والأب، يُضفي بركةً على البيت، وموسوعة لا تنضب من حكاياتهم الإنسانية الحقيقية التي توثق تاريخًا عريقًا وأسلوب حياة مليئة بالتفاصيل ذات المعنى القريب من ما نفتقد من التراث الأصيل. إسْتَفَقْتُ من ذاك الشعور بالحنين وبدأت بإتمام الكثير من الأعمال المتراكمة. بدأت بمحاولات لإكمال الرواية فعجزت، لأتابع عملي بعدها في إتمام مقالتي التي انتقيت عنوانها فكان "الجنود المفقودون في حرب 67 على عتبة الانتظار وقيد الأمل"، إسْتَفَضْتُ بالكتابة حتى أكملتها لأكافئ نفسي من بعد ذلك لإتمام عملي في التدقيق اللغوي لكتابٍ مؤلفه مختص يتحدث عن الموهوبين المصابين بالتوحد. إختصر مرور الوقت الكثير من

المهام المحشوة في شريط مهامي، شعرت بالرضى وانصراف تأنيب الضمير من تلك الالتزامات، صنعت كوبًا من القهوة وانتظرت نداء أذان الفجر لينادين بجلوةٍ ووجدٍ يزيل ما أثقلني من الوحدة والحنين، فيغدو خفيفًا رفيقًا مؤنسًا لا ألم فيه.. هذا النداء الذي تلبيته الملاذ الآمن لوجودنا مُنيبين مُخبتين له وحده سبحانه..

إسْتَيَقَظتُ على ذلك الفرح الذي يُلقى في كينونتي بلا مُسبب ظاهر، لا أعلم سره، وكأنه سحرٌ تضيفه تلك الساحرة الطيبة إلى حكايات الطفولة كبريقٍ يمنح الجمال والاطمئنان في تفاصيل الحياة بلا وصفٍ يعادل امتناني لما لا أعلم. فتحتُ هاتفي وإذ بدعوةٍ عامة لتوقيع رواية "فُتات الخُبز" لكاتبٍ فلسطيني اسمه عُرَيْب، كانت المراجعات عن رواياته تُثير الرغبة والفضول لاكتشاف سحرها ولقراءتها على عجل، ولمحت فكرةً استمسكت بها وألححتُ على نفسي بتنفيذها، وجهه أعرفه جيدًا وكأنه ذاك الوجه الضائع الغائب منذ أن خُلقت، ومُروره من بين ناظري يُسكِنُ الضجيج الكاذب لتحلَّ مكانه موسيقى الحياة الوردية، استغربت من الحوار الذي يجول في قلبي ويصدقه عقلي باللاشعور من دون إذني، نظرت إلى نفسي في المرآة ورأيت وجهي أجمل مما مضى، وكذلك كل شيء من حولي في كل ما وقع عليه بصري وسمعي حتى استقر في مقام قلبي نعمةً تطيب بها الندبات، وتزيد من حدة الحنين لمن راحوا ولمن هم قادمون ليحلوَ الوصل باللقاء.

في المساء كنت على موعد مع حفلة موسيقية للموسيقار الأردني طارق الناصر، ذاكرة موسيقية من وحي ذاك الشاب العشريني العبقري

من الموسيقى التصويرية التي حُفرت في ذاكرتنا وأولها أغنية "يا روح لا تحزني" من مسلسل نهاية رجل شجاع، ليرقى ويُبهرنا أكثر في موسيقى مسلسل الجوارح والكواسر ويوميات مدير عام.. وأكثرها وجْدًا وقُربًا موسيقى "روحي يا روح" من سلسلة ليس سرابًا.

جاء المساء، وفي طريقي اشتريت رواية فتات الخبز، دخلت المسرح وجلست في الصف الثالث متوسطةً المقاعد لأحظى بوضوح التَجلي في الألحان المُنتقاة من وحي الجمال الذي تُرجم بلغةٍ موحدة تصل بمعانيها لبني البشر على اختلاف لغاتهم. موعد الحفل بعد نصف ساعة، اتصالٌ هاتفيٌ أتلقاه فأجبت مسرعةً لأتلافى خطأ نسيانه مفتوحًا:

- مرحبًا، الآنسة سارة؟!
- أهلًا تفضل من معي؟!
- أنا عُريب فاضل.. وأحد الأصدقاء نصحني بك كمدققة لغوية مُختصة لإحدى رواياتي القادمة.
- مؤكد، لا بأس، لا مانع لديّ.
- نُحدد موعدًا للقاء عمل؟!
- نعم لا بأس.
- أين ومتى يناسبك؟
- غدًا العاشرة صباحًا في مقهى "فن وشاي"
- جميل، اتفقنا، سلام..
- سلام..
- شكرًا، سلام..

أغلقت الهاتف، شهقت، ابتسمت ومن ثم ضحكت مع نفسي بضحكات الطفولة، نظرات من حولي تثير استغرابي من استغرابهم، أصابني توتر وفضول وشغف يتزايد بمرور الوقت بالدقيقة، لا مكان للصدفة فكل ما يقع بقدرٍ مُحكم ونحن نشاهد ماذا بعد ينتظرنا. إفْتُتِحَتْ ستارة المسرح وكان ترحيبًا أنيقًا من الموسيقار طارق الناصر بزيه الأبيض، صفق الجميع وأنا صفقت كالطفلة التي تكاد تقفز من فرحٍ لا تعرف سببه. جلس الناصر أمام البيانو وبدأ بعزف المقطوعة التي أُحِبْ.. مقطوعة "حب"، حوار يشدو بين البيانو وشجن الناي يحكي تلك الحكاية البريئة عن الحُب الذي يشوبه الخجل والشوق. أغمضت عينَيْ وإذ بالمسرح خالٍ تمامًا حتى من المايسترو والفرقة والجمهور، البيانو والناي يصدحان بلحن "حُب" من دون عازفين يطلقون اللحن، مشيت باتجاه المسرح، كان فستاني حريريًا باللون الأزرق وشعري أطول مما هو عليه بطوق الورد الزهري، خلعت حذائي ورُحتُ أرقص بتناغمٍ وكأن التمايلات تُطابق النوتات الموسيقية مع أثر الأنوثة الذي لا يكتمل الجمال بدونه، لم أعد أحس بأرضية تحت قدمَيَّ لتحملني، فالسماء تُطَوقُنا وتَرْفَعُنَا أنا والبيانو والناي، والغيوم تُداعبنا بملمسها القطني، وللمرة الثانية ينمو لي جناحان ليُضفيا جمالًا سرمديًا من قصص الطفولة التي أُحب. إسْتَدْرَكْتُ التصفيق والتصفير من الجمهور فاستفقت وصفقتُ لي وللبيانو والناي وله، ليبدأ بعدها الناصر مع فرقته تلك الأغنية التي استثارت مشاعري التي لم تتوقف حسرةً على شوقي للشام وثُريا ويعرب الذي أبحث عنه بمراسلاتي ومقالاتي إلى المنظمات

المعنية بالجنود المفقودين، الشّام وعزِّها الجريح وحُرقتي على خذلان أهلها.. كان بكاءً يستفيق بالذكريات والحاضر المَعيب.. الكُل كان يُغني على ما يؤلمه وعلى ما يفتقده، نظرت إلى الوجوه التي تحمل سرًّا إسْتَفَاضَتْهُ التعابير على وقع اللحن والكلمات:

"يا روح لا تحزني ويا قلب ظلك هني.. زوار جينا عالدني والعمر بحر ونهار.. زوار جينا عالدني يا هالفقير وهالغني.. راس الشجاع ما بينحني لو صار مهما صار.. الذل طعمو مر ما يطيقو الحر.. الذل طعمو مر ما يطيقو الحر.. والحب هو السر.. والعمر تذكار.. يلي غارق بالأوهام فِزْ اطلع لقدام.. عزك فيك وذُلك فيك هالعمر كلو منام.."..

كانت الدموع حارة والقلب ينبض على وقع لحن الأمل والألم.

في نهاية هذا الحفل الراقي كانت المقطوعة الأخيرة جديدة ولم أسمع بها من قبل، الكلمات تُثيرُ التساؤلات والدهشة والبحث عن جوابٍ واحد لا اختلاف فيه. منذ ساعات يوم أمس، مرورًا ببزوغ الشمس حتى غروبها، وإلى هذه اللحظات كانت الإشارات الجلية تُحيط بي وقوةٌ خفية تدفعني لأقاوم صبراً حتى الوصول والسمو والرضى لأنال شرف الاستحقاق ورِفْعَةُ الإيمان، هو الله.. إجابتي عن الوصف البديع في أغنية "هنالك دائمًا نور" هو الله.. ملاذُنا الآمن مُطلقًا..

طلب الجمهور وأنا معهم من الناصر إعادة الأغنية الأخيرة "نور"، وصرنا نتغنى بها معه، فالكلمات تخرج من القلوب من دون حفظٍ مُسبق بل بانغداقٍ ألقَتهُ المعاني التي أصابت ذاك الطفل الذي بداخلنا فصَدقته بفطرته السليمة وقلبه البريء.

"هنالك دائمًا نورٌ،
لنجمٍ يرفع الظلماتِ عنّا وهو مستورٌ
هُنالكَ دائمًا قُوّة،
تُرافقنا وتُدركنا ونحنُ على فمِ الهُوّة
هنالِكَ دائمًا حُبٌّ،
يُفاجئُنا بدفءٍ غيرَ مُنتظرٍ،
إذا ما أقفرَ القلبُ
هُنالِكَ دائمًا نسمة،
تهبُّ على جروحِ الرُّوحِ،
حتى تَنجلي الغُمّة
ونحنُ نعيشُ ما ينفكُّ،
يحرسُنا، ويلمِسُنا،
بلطفٍ غامضٍ،
ما ليس مَرئيًا،
وإلا..
ما الذي يُبقِي الفتىٰ حيًّا؟

"عهدٌ جديد"

مكتبة
t.me/soramnqraa

عمان - اللويبدة.. شتاء نيسان 2016

رواية "فتات الخُبز" التي تجعلك تعيش تأنيبًا مُلازمًا على ما زرعت وحصدت، تحكي عن شخصيات تمارس الطغيان لكن بتأثيرات متفاوتة، ذاك الصراع بين الخير والشر، بدايةً مع النفس، ونهايةً بالصراع بين القوى العظمى التي نعاصر أثرها المُميت، الجاحدة لحال الإنسان بأبسط الحقوق المسلوبة والمبتورة. كانت الأحداث ترغمني على وقفةٍ مع النفس ومشاهداتٍ تطابقت مع حال الواقع والقادم الذي يبعث على جدية الثبات رغمًا عن خباثة الفتن والنجاة من السقوط أمام النفس، أو السقوط في خطيئة هلاك وفساد الغير.

الساعة التاسعة صباحًا، اتجهت مشيًا من بيتنا باتجاه المقهى ورذاذ المطر يتساقط حانيًا على وجهي برائحته الربيعية، هنالك الكثير من الأسئلة وكثير من الإجابات التي تُثبت ما أراد إثباته عُريب في روايته، وهنالك فضول أكبر لسماع نبرة صوته واقعًا، ومشاورات مع نفسي بكيفية إلقاء تحية الصباح على هذه الروح التي سألقاها، وكأنه سفيرٌ من ذاك الزمن الذي التقيته وواعدني حينها بالبحث عني. ربما كان لقاء يشفي قلوبًا قاحلةً أرهقتها توقعات الخير والحُب بالخذلان والخيبة، تنهدتُ وحاولت طرد

هذا الحوار الذي يجول في قلبي ويصدقه عقلي، فلا حاجة للمزيد من سيناريوهات العالم الوردي، فأنا في لقاء عمل ومهمة رسمية فقط لا غير.

الطاولات فارغة والكثير منها على موعد اللقاء.. مع قراءة كتابٍ.. أو قلم ينتشي بالكلمات أو مع حوارات الصباح المتعطِّشة للبوح والعتاب. إنْتَقَيْتُ طاولة جديدة لم أجلس عليها من قبل، كانت بجانب النافذة وشجرةٍ مُطلة منذ عقودٍ من الزمن. جاء النادل من دون طلبي مع فنجان قهوةٍ أمريكية وقطعة بسكويت الشوفان، وأتبعها مع مغلف أوراق وأظنها الرواية القادمة لعُرَيب، أخبرني أنها ضيافة من عُريب، وأعطاني ورقة ستختصر عَلَيَّ زمن الفضول والانتظار لذاك القادم عبر هذه البوابة اتجاه طاولتنا. كُلُّ التصورات والاحتمالات تساقطت أثناء قراءتي للكلمات وأعادتني متكئةً على الجدار المجاور الذي يلسعني ببرودته، لكن كيف عرف بأني أحب بسكويت الشوفان:

"صباح الخير آنسة سارة، أعتذر جدًا، تركت لك نص روايتي الجديدة للتدقيق، فجر اليوم انتكست صحة جدي وهو قائمٌ يُصلي فتوفي على الفور رحمه الله، واتجهتُ إلى فلسطين، ألقاك على خير"، لم تكن رسالةً عبر الهاتف أو عبر وسائل الاتصال الرقمية، كانت ورقة اعتذارٍ بخط يده، رُحتُ أسكُن شيئًا فشيئًا من الأثر الذي بين يديّ وأتأمله من بين تعرجات تلك الحروف العربية، أتُراه كان وعدًا بأن يلقاني على خير، هنالك الكثير من المهام المحشوة برأسي، وحق العودة إلى فلسطين أمانةٌ لا تحتمل التأجيل أو التأخير فيها، وثُريا التي أوصتني بتتبع أثر يَعْرُب، همٌّ يؤرقني، إتَصَلْتُ بهناء على عجل:

- هناء، سآتي إلى فلسطين، ما الإجراءات والأوراق القانونية؟!

التوق سفرًا عاجلًا إلى الوطن المُقدس للانعتاق مما أثقل كاهلي من الزمان العابر، فلسطين الوعدُ الذي أوصاني به والدي مُبكرًا وكأنه يعلم أنها ستكون وصيته الأولى والأخيرة، هويتي بوطني وحقي المشروع لأخطو على ترابها المُقدس، وأسمع حكاياتها من جديد عن البيت والحجر والشجر ومن أفواه الأجداد والجدات البُسطاء المُفعمين بحُلم العودة إلى بيوتهم المُهجَّرة عنوةً وطغيانًا.. وما زال للحُلم بقية وأجيالٌ تُسلِّمُ أجيالًا، مقاومين أحياء أو شهداء ينسلون من رحم الأمهات الأحرار، نسلًا لا ينضب ولا يخور. فالحق هو البينة من قضيتهم المُشعة كنور الشمس رُغمًا عن كُل بشاعة الاحتلال وأعوانه.. فمع كُل ارتقاء شهيدٍ بُشرى لشهداء يرتقون من خلفهم إلى يوم الدين.. إلى يوم الحق الموعود..

"سَأخطو على تراب وطني فلسطين"

فلسطين.. نابلس.. ربيع نيسان 2016

حدثتني هناء عن نابلس البلدة القديمة التي لا أستطيع تذكرها جيدًا منذ زيارتي الأولى مع والدي في عامي السابع، ذكرت لي أنها معروفة باسم "دمشق الصغرى" للشبه الكبير بينهما في أسلوب العمارة، في حاراتها وبيوتها وياسمينها. أحسست وقتها بجمالٍ وشوق يَسْريان في عروقي والروح تتفلت من جسدي لتلامس السماء ساجدةً، والقلب يتلهف لأطأها بكل وجداني متخيلةً نفسي بما وصفتها هناء لي وكأني أعيشها حقيقةً في أحضان دمشق الوطن، كثيرةٌ هي أوطاني، في كل وطنٍ أثَر من ولاداتي التي ترجو حياةً في روح تلك الطفلة التي لا تزال في قلبي ترقص تحت أنشودة الحُب والمطر والسلام، باحثةً عن الجمال في مظلة الحق والعدل في كُل أرضٍ أنشدت المنال للحرية ورفعة الإنسان. ففي كُل قضية إنسان أضناه القهر وبُتِرت حقوقه لي وطن أتبناه. أن تكون إنسانًا سليم القلب مُحبًا مُحقًا صارخًا بالحق فأنت وطنٌ لمن خارَتْ قواه ولم يتبقَّ له إلا ذكريات وطن وبقايا إنسان..

عبرت جسر الملك حسين عبر الحافلة، حينها فقط وأنا في طريقي إلى فلسطين أصابني شعورٌ حقيقي بأنَّ لي وطَن سألقاه وأضيفه باقةً لأوطاني، ولي إيمان وحُبٌّ ما زلت أبحث عنه ما دام هو يبحث عني. مرت ساعاتٌ طويلة من التحقيق من جنود الاحتلال حول السبب في تأخري لإصدار الهوية الفلسطينية والبطاقة الصفراء، شرحت لهم الأسباب التي عشتها ولم ألقَ اقتناعًا منهم، فهم لا يسألون ليقتنعوا. أذكر أن أكثر ما استفزني في هذا التحقيق عندما قال لي الجندي بعد التحقيق وكم هائل من الأسئلة: "خليكِ هون ثلاث أربع خمس ساعات، خلينا نشوف شو بدنا نعمل معك، غبية! في حدا بيتأخر عن هيك شي"، إسْتَغْرَبْتُ من استغبائي لحقي الذين يتمنون أن أتنازل عنه وأهمله.. وأكثر ما استفزني أيضًا وأصاب ذاك الوعي في الصميم بندبة الحسرة والشقاء الذي عاناه الوطن جراء سرقة الأرض وذكرياتها، تلك الأعلام الصهيونية التي أُسقِطَتْ على ناظري رُغمًا فأسقطتها رُغمًا عن عُلُوها الزائف..

اتصالات جدي وجدتي وهناء لم تتوقف مع إصرارهم على إبقاء خط الهاتف مفتوحًا بيننا، عبر الجميع عبورًا لا انتظار فيه بسهولة وسلام من الرحمن، وأنا سئمت من الانتظار لساعات تُطوقني بشوق العبور إلى أرضنا وهوائنا وتحت سمائنا، خرج من الغرفة ثلاثة جنود مُسلحين.. وقفوا أمامي وحان الوقت ليأذنوا لي بالعبور ولقد أذن الله قبل كل شيء، وها قد وصلت ناجيةً إلى محطة العبور التابعة للسلطة الفلسطينية، كان أول ترحيب لي بلافتة رجل فلسطيني يرتدي القنباز" الثوب الفلسطيني"

مرحبًا بي بـ "نَوَّرت فلسطين"، وقفت ونظرت عاليًا إلى اللافتة وأنا أبتسم له وللعلم الفلسطيني الذي لا يشبه في ألوانه كل أعلام الكون، إسْتَنْشَقْتُ هواءنا فكان عبيرًا لا يمنعه أحدٌ عني، وعلى بُعدِ أمتار كانت هناء وجدتي وجدي بالانتظار..

ساعات ووصلنا فجرًا إلى بيت جدي العتيق في نابلس البلدة القديمة الذي ترعرع فيه والدي في حي الياسمينة، فجرٌ جديدٌ في فلسطين، حديقة منزل جَدِّي كما هي مبتهجة بشجر الليمون والبرتقال والزيتون والبوملي وغيرها من المزروعات، ونور الشمس ينعكس على حجارة جدرانه الوردية. حَضَّرَتْ جدتي سُفرَةُ الفطور الفلسطيني من كل ما طاب من شكلٍ ولون ورائحة ونَفَسٍ طيب من صنع يديها، وأنا في قلبي خَفَقَانٌ يُسارع للقائك يا دمشق الصغرى في وضح النهار، إسْتَعْجَلْتُ هناء للخروج إلى حارات وأزقّة نابلس القديمة.. طلبت مني النوم لآخذ قسطًا من الراحة لأن التجول يحتاج وقتًا طويلًا.

سارعت بالنوم لأختصر الوقت في غيابي عن الوعي لأطفئ الفضول الذي يدفع بي للمسير.. حان الوقت وخرجنا أنا وهناء.. أين أنا؟.. تساءلت، شهقت، ودرتُ حول نفسي والبصر يلتف بين سمائها الجلية وطرازها المعماري الذي أعرفه جيدًا، عشقت من جديد، الطفلة التي بداخلي تتراكض بي فرحًا، أنا في دمشق العتيقة، حسبت نفسي لن ألقاكِ يا دمشق، وها أنا في توأمك الذي عشقته ما أن وطأته..

جدران المنازل الحجرية المتوردة، شبابيكها المتلاقية بحكايات رسائل الحب والحرب، طرازها المعماري الذي يرتسم في كل موطأ

لقدمي وبصري، مهن حرفية تقليدية أصيلة مُتوارثة ورجال متقدمون بالسن يُمَجِّدُونها ببركة أعمارهم.. الصابون النابلسي.. الزعتر والجبن النابلسي.. نسيجٌ جميل وعريق من الفن المعماري والنسيج الاجتماعي المتمسك بدكاكينها القديمة في أزقة نابلس، حمامات قديمة كما في دمشق.. حمام السمرا، وحمام الشفاء التركي وغيرها، كانت شهية وطازجة.. حلويات الزلابيا والكنافة النابلسية في محل الأقصى المعروف لأهل نابلس، مساجد تألقت بمجدها، قبة خضراء بمسجد النصر وأقواس جليلة في مسجد الصلاحي وغيرها من المساجد التي لم يسعفني الوقت لألتقيها وأبحث عن تاريخها.

إتَجَهْنَا إلى خان التجار المزدحم.. كانت الوجوه تتسم بالحياة والألوان المبهجة من الملابس والخضار والفاكهة والتمور في وسطٍ عريق بتاريخه وحكايات من عاشوه، أدراجُ الحارات تصعد بي وأصعد بها إلى حيث ما أبحث عنه مسدلةً ثوبي الزهري المتورد، ومن حارة الياسمينة قطفت ياسمينًا احتضنته لأستنشقه مع عشقي الجديد العتيق. حارة الياسمينة من الحارات الرئيسية السبع غير الحارات الفرعية، أذكر أني مررت وقتها من زقاق حارة الحبلة، القيسارية، الجوزة، القريون، حارة الغرب وأخيرًا حارة الشيخ مسلم. نابلس هذه المدينة المُدللة لدى الدولة العثمانية حيث لاقت اهتماما بالغًا في عمارتها قصورًا وبيوتًا وخانات وحمامات بطرازها المعماري العثماني وبعُمرٍ يزيد عن الخمسمائة عام من الحضارة الشاهدة على ذلك إلى يومنا هذا، وأمّا السلطان العثماني عبد الحميد الثاني فقد أحب مدينة نابلس وأهلها

وأهداها ساعة بمناسبة عيد ميلاده، فقام الأهالي لإحياء ذكراه بعيد ميلاده بإنشاء برج عالٍ وسط المدينة، وهو بناء مُرتفع ومربع الشكل وتوجد الساعة على الجهات الأربع.

أمَّا منزل شاعريْ فلسطين إبراهيم وفدوى طوقان، فكنت ذات يوم في أحضانه بكل إجلال وإكبار وما عشته فيه لا يُختَصَرُ بسطرين، أظنني وقتها انتقلت بالزمن حقًا معهما، وهذا ما حصل فعلًا، هنالك الكثير من الأبحاث التي سأقرأها وأبحث عنها بكل طريق مررت من جانبه ووطأته وكان شاهدًا حجرًا وروحًا.. قلمي يشتاق لتدوين كُل ما يملأ مخيلتي.. وتوثيقه في ثنايا سطور صفحاتي.

دخلت أنا وهناء إلى معرض أنتيكا قديم يقع خلف المسجد الصلاحي، كان يجمع كل ما هو جميل وعتيق من الإكسسوارات والنثريات والتراثيات والتحف. مالك هذا المحل سبعيني عجوزٌ عارف ومثقف أدهشني شرحه في كل قطعة يمتلكها بحكاية وتاريخ دقيق، وأكثر ما جذبني عنده العملات الورقية الفلسطينية القديمة التي يحتفظ بها، والأحجار الكريمة والراديو القديم ذو العجلتين والحُلِّي بطرازها الفلاحي. وقع اختياري على هدية لجدتي، كان عقدًا تراثيًا عتيقًا بالطراز الفلاحي الفلسطيني باللون الأسود والأحمر، إنْتَقَيْته واشتريته لها، وقبل مغادرتي قال لي العجوز وهو يَمُدُّ يده بقلادة حجر كريم باللون الأزرق: "هذا الحجر لك ويشبه روحك، وأنت تحملين في داخلك ما سأقوله لك فاسمعي جيدًا"...

قبل أن يبدأ بالكلام لم أُلقِ له بالًا، فأنا لا أؤمن وليس لديّ أدنى اهتمام بهذا النوع من الأحاديث، بدأ العجوز يتحدث وهو ينظر إليّ نظرة

من آلمه شيء وكأنه يواسيني ويوصيني.. حقيقةً لا أعلم كيف عرف عني كل ما قاله، وبأي ثقة وجرأة يحدد كل زوايا تكويني الروحي ونقاط القوة والضعف، وكل ما أحب وأكره! كيف عرف ما أنا فيه من حيرةٍ وحب وإيمان، من ضعف ألجمه بكل ما أوتيت من قوة. لكن ما لفت انتباهي آخر ما قاله لي قبل مغادرتي، قاله لي بكل مواساة وفرح بما يراه في داخلي:

"يداكِ تلتفان بالحرير، وقلبك أبيض نقي رُغمًا عن كل شيء، وفي عينَيْكِ حلم قريب لكنه يتعثر بالوصول إليك، كذلك كلما زاد الجرح في قلبك اتَسَعَ بكل حب وطهر وصبرٍ وحكمة وحِلم، ولا بأس إن خرجتِ عن المألوف بقليلٍ من الجنون المُهذب إن كان في ذلك سكينةٌ لك وللطفلة التي في داخلك، رضي الله عنك على قدر رضاك..".

أدمعت عيْنَيَّ يا عم، اقشعرَّ جسدي بروحي من كلماته، شكرته على حُسن ضيافته وعلى اللحظات التي صدقت كلماته ما يُشبهني منها حقًا، وفي أثناء مُغادرتي أنا وهناء، نادى العم السبعيني: "ابنتي سارة هل لي أن أرى قلادتك؟"، إسْتَدَرْتُ مُستمسكةً بها بكفي الأيمن فأجبته: "لا بأس، هي هدية لجدتي وكانت ملكًا لها، في داخلها صورة جدي"، تفحصها وكأنه يعرفها جيدًا ويتفقد تفاصيلها بعدسته.. صمت كثيرًا مع نفسه وكأنه يحاول استحضار شيء غائب عن ذاكرته، أعطاني القلادة بصمتٍ مُتَواصِلٍ قائلًا: "حافظي عليها، هنالك ما أحاول تذكره لكني عجزت".

"عين كارم"

فلسطين.. نابلس.. ربيع نيسان 2016

مرَّ أسبوعان على وفاة جد عُرَيْب، صفحته الشخصية في مواقع التواصل الإجتماعي لا جديد فيها منذ ليلة حفلة الناصر، حتى رسالة التعزية التي أرسلتها لم تصل إلى بريده بعد، بحثت عنه في الوجوه العابرة في أرض فلسطين لعلي ألقاه بالرغم من أني لا أعرف المدينة التي تحيطه ويسكنها الآن، كان قريبًا جدًا ببريق كلماته التي خطها بيده بلون الحبر الأسود في روايته التي قاربت على إنهاء تدقيقها، وخاصةً في ساعات التحقيق مع جنود الاحتلال الذين نَفَذْتُ منهم بسلام من الله، رواية "عوالق الطين وأجنحة السماء" الهبة التي أهداني إياها عُرَيْب بأفهامٍ جديدة ونور يسري في ظلمات عوالق طيني، فَتَسْتَثيرُ نمو أجنحة الريش الأبيض بهمة التحليق إلى سماء الحكمة المحيطة بسلام. الإشارات الجلية تتبعني وأتبعها ولا أعلم ما المُنتهى والمُبتغى، فيكفيني الأُنس الذي يُحيط بي واتباع أثره والإشارات التي يسوقني إليها القدر، وفور انتهائي من تدقيقها أرسلت له رسالةً أُعلمه بأنه تم التدقيق ومراجعتها مرتين كذلك..

طيلة وجودي في فلسطين كنت جاهدةً على الحديث بلهجتي الفلسطينية الفلاحية مع من حولي، لهجة جدي وجدتي الأصيلة

ساعدتني أكثر على إتقانها بكل حُب وشغف وكأني تعلمت لغة جديدة أفتخر بها دونًا عن كل اللغات، كانت جُل أحاديثهم عن حكاياتهم وذكرياتهم في زمن الطفولة والشباب في قريتهم "عين كارم" المهجرة في القدس في نكبة 1948. جدي وجدتي ابنا عمومة في بيتين حجريين متجاورين لخطيبٍ مُحبٍ لابنة عمه، الفرح الذي لم يكتمل عرسًا بسبع أيامٍ بلياليها تحت سماء قريتهم، نبرة صوت جدي بالآخ والتأوهات و"سقا الله أيام زمان" و"مشتاق أرجع لبيتنا" تُطالب بحقه الذي لا يزال مُتمسكًا ببلوغه ولو بشبر أرضٍ وزيتونةٍ زرعها فأينعت وتشبثت في قعر أرضه من ديار بيته المُحتل، تلك الرزمة من المفاتيح التي يحملها جدي أينما وطأت قدماه كانت عالمه الزيتوني الأخضر الذي أقفله بوعد العودة القريب مع أهل قريته المُهجرة، رعبًا وذعرًا من دون حق. كانت الأنباء التي سمعها أبناء القرية عن المجازر المرعبة التي اقترفتها العصابات الصهيونية بحق قرية دير ياسين المجاورة كافية للهروب فزعًا وخوفًا من هول ما وقع من جرائم دموية بحق الإنسانية آنذاك، فاختاروا قصرًا ذاك العبور المجهول لبقعة أمانٍ تاركين بواباتهم مُقفلةً مع الاحتفاظ بالمفتاح ونسخة قوشان البيت، ظانين أن المفتاح والقوشان سيحفظ وسيثبت لهم حق العودة القريب تحت ظل الإجرام الصهيوني ومن تواطأ معهم ولو بخائنة الأعين.

عين كارم كما حدثني عنها جدي وببحثي عنها.. كانت من القرى التي سلمت بيوتها من التدمير وطمس المعالم الأصيلة لأهلها، تلك البيوت المبنية من الحجر الكلسي والطبشوري، تعلو نوافذها قناطر،

وأبوابها تعلوها قناطر كبرى تتخلف قليلًا كجوفة المحراب. أتراها جمالًا قائمًا أم الحسرة التي تفتك بذاكرة جدي وأهل قريته جراء استيلاء المستوطنين المحتلين على بيوتهم بمقتنياتها رغمًا ووقاحةً. "عين كارم" القرية الجميلة ذات الطبيعة الخضراء الخلابة، والمياه من الينابيع الجارية والجبال الشاهقة، تقع على الطريق المرصوف بالحجر الذي يربط بالطريق العام بين القدس ويافا. للقرية قدسية خاصة لدى أهلها، فيُقال: إن النبي يحيى عليه السلام ولد على أرضها، والسيدة العذراء وسيدنا عيسى عليهما السلام زاراها أكثر من مرة. كذلك زارها الخليفة عمر بن الخطاب حيث سُمِّي المسجد العمري باسمه تيمنًا به، هذا المسجد الذي منع فيه الأذان والصلاة وتم سلب محتوياته وتكسير حجارة منبره ومحرابه وهتك قدسيته. عين كارم القرية الأسيرة سميت بهذا الاسم نسبة إلى عين الماء العذبة المتدفقة من جبالها لتسقي أبناءها وبساتينها الزاهية بأشجار الزيتون والكرمة والتفاحيات واللوز، وكذلك أشجار السرو والصنوبر الممتدة على المرتفعات الجبلية ومنها جبل العقود، ومسكري، ورأس التوتة، ورأس المدورة، وتوجد فيها العديد من ينابيع المياه العذبة أهمها عين البلد، ونبع عين رواس، ونبع بعيقشة، وعين الحنو، وعين الشقاق الغربي، وعين الخندق والخارجة.

وأكثر ما أثار دهشتي تلك الثقافة والفن والبساطة في القرية. حدثني جدي عن مصطلحٍ جديد لم أسمع به من قبل وهو "الحمولة"، فكانت قرية جدي تتألف من خمسة حمائل، ولكل منها حوش يجمع أبناء الحمولة الواحدة بمناسباتهم وسهراتهم مع ضيوفهم. وفي القرية

مدرستان ابتدائيتان واحدة للبنين والأخرى للبنات، ومكتبة وصيدلية، وكان فيها أيضاً نادٍ رياضي اجتماعي ونادي كشافة للأولاد، والجميل أنهم كانوا يشاهدون عروضًا مسرحية ومنها مسرحيات نوح إبراهيم الفنان والمغني الفلسطيني الذي تم إبعاده عن قريته في شمال فلسطين إلى عين كارم بسبب مقاومته في النضال ضد الانتداب البريطاني آنذاك. وامتدت وسائل الترفيه لتكون مسرحًا في الهواء الطلق، وكان للقرية مذياع يستمع له أهل القرية في المقهى حيث يكون موصولًا بمكبرات الصوت لإيصال صوته لأكبر مدى ممكن في الأرجاء.

لم أجد وصفًا لعين كارم يرقى إلى وصف جدي الذي لم ينسَ أي تفصيل ولو كان بسيطًا، كان يصف وأنا أتخيل كما يُلقى عليَّ من ذاكرته الثمينة فينحصر البصر بتلك القرية ويُلقى حُبها في قلبي وشغفي بالخطو فيها قدرًا أطلبه حقيقةً وأسير نحوه. جدي عدنان عندما وصل بروايته إلى تلك الليلة المشؤومة استجمعتْ تجاعيد وجهه ذاك الأسى وانحنت عيناه حسيرتين وكسيرتين حدادًا لا انفكاك منه وكأنه عاش لحظتها تلك الليلة:

"كُنا مذعورين من تلك العصابات التي وصفوها لنا بالمتوحشة.. أحد الفارين وصف ما حلَّ بأقاربنا وأصدقائنا في مجازر دير ياسين الذين أُهلكوا بالذُعر والقهر من إرهاب المُحتل. أمي وأبي وأخي بعمر العشر أعوام وأختي ذات الخمسة عشر ربيعًا أثقلوا كاهلي ببكائهم الذي لا يكاد ولا يُريد أن يَعي المُّر والغربة القادمة. عقد عمي قراني على خطيبتي زواجًا لا فرح فيه فازددنا روحًا وانحنى كاهلي بمسؤوليةٍ أكبر،

فانكشفت لي بنعمةٍ أتكئ على كتفها حُبًّا يسندني، ابتعدنا جموعًا لا شتات ولا ثغر فيها مُتشبثين بما تبقى من قوانا ومن بقايا الأمل بالعودة، فالحق معنا. شددنا من سرعة المسير قبل وصول العصابات إلى قريتنا، نمشي ونبتعد أكثر وأكثر عن القرية العزيزة، ونلتفت في كل خطوةٍ للوراء التفاتة الغريق الذي ينتشي بأنفاسه الأخيرة والبصر يكاد يُغادر أجسادنا بروحنا فيعمى من بعد ذلك القدر في نظرة الوداع الأخيرة.. كانت أيامًا تقودنا رُغمًا إلى خيمٍ انتقوها لنا بلون بشع لا ترقى لجمال بيوتنا التي سلبوها.. أبدلوا جناتنا بجحيم الخيم والخيانة ومعاهدات الغدر والنذالة، وهدنة تتلوها هدنة حتى ضاع البلد.. الحُمّى ابتلعت أخي الصغير وغادرتنا بروحه إلى جنة النعيم.. كان زمانًا تمنيت أن أجتثه فيكون ذاكرةً منسية، لكن كيف لنا أن ننسى ذاك النعيم من قريتنا عين كارم.. وبعد عناء توصلنا إلى بيتنا في عمان - جبل اللويبدة لنبدأ عهدًا جديدًا.. أما الصبر المرير فقد نفذ من أمي وأبي حاملًا راحتهما إلى حياةٍ وراحةٍ لا نَصَب فيها ولا مهانة"..

الوجد والحنين والقهر في تفاصيل حياة جدي أسىً وذكرى لا تنضب.. لم يُطِل البقاء في عمَّان سوى عقدين من الزمن، فآثر الرجوع مع جدتي إلى فلسطين، والبقاء في منزل والدته في نابلس القديمة حينها في حارة الياسمينة.. كان همّه أن يكون قريبًا من القدس.. من قريته.. من صلاته في الأقصى.. ومن بيته الذي يعشق في قريته إلى الآن.. وما تبقى إلا حسراتٌ على احتلاله من قبل عائلة صهيونية.. تَحسّستُ جروح جدي بذاك الخُسران وتلك الحقيقة الخائبة عندما تمكن بالقوة من زيارة

قريته مع جدتي في عامي 1968 و2000، القرية تحتضن بيوتها الصامدة الأسيرة ظُلمًا.. خاوية من عروش أرواح أبنائها المُشتتين في البقاع والخيبات. طرق جدي بوابة بيته وبيده مفتاحه وقوشان بيته، فخرج المستوطنون يتكلمون العربية جيدًا، كانوا يعلمون أن جدي هو مالك البيت بحجره وشجره وبذكرياته، استهزؤوا به عندما عرض عليهم قوشان بيته ومفاتيحه، أغلقوا البوابة بوجه جدي وجدتي وتركوا كلابهم عند البوابة تعوي ضد المُحتل. جلس جدي عند مصطبة بيته يبكي ما بين آهٍ وآخ، لفت انتباهه شجراته التي زرعها مع والده من البرتقال والسفرجل والليمون، إلْتَقَطَ الكثير في جوف قنبازه وثوب جدتي.. أعادوا شيئًا من عبق ورائحة الوطن وغادرا مُلتفتين تاركين القرية بعين الحق التي لا تضيع ودائعه إيمانًا وصبرًا وذكرى يفتخرون بها..

"سَنُصلي في أقصى القُدس"

فلسطين.. نابلس.. صيف 2016

أرى النور يُطوقني فيهتدي بصري طريقه بلا عوج ولا ظلمة فيه.. وأراني في سماءٍ بلا أرضٍ أطأها ثِقلًا بل نورًا يرقى بي بخفة الريشة البهية.. صوت صهيل الجياد قادمٌ من بعيد.. يعلوه فرسانٌ مهيبون بجمالهم ورفعتهم.. امتلأ المُحيط بأجنحة الجياد لتُحلق في سماوات أرضنا المُقدسة.. تَوارَتْ في النور الشاهق.. إسْتَيْقَظْتُ خفيفةً مُستأنسةً بما رأيت.. إبْتَسَمْتُ بشجاعة وقوة تملأني، ربما ألقت كلمات رواية عُرَيب التي سهرت على إكمال تدقيقها على جنبات نفسي وروحي رؤيةً صافية من تلك العوالم الجلية المُسترة بالحُب، مُتَفَلِتَة من عوالق الطين مُتَشَبِثَة بأجنحة جياد السماء.. غاب عُرَيب وانقطعت سبل أخباره، أنفاس البقاء الذي أعيشه في هذه الأرض المباركة تخبرني أنه قريب ويُثري الأماكن بسرٍّ لا تفسير له إلا أثرًا يشعل فرح تلك الطفلة المشاكسة في داخلي..

طرقت جدتي الباب.. نهضت مسرعةً لاشتياقي إلى ذاك الصباح بهيبة وجه عدنان ومُعزَّز، جليلة تلك القامات المنحنية وقارًا من قنباز جدي وثوب جدتي الفلسطيني المُطرز.. قبلات يديهما تكسبني عظمةً

وكنزًا ألتمسه بهما ومنهما دعاءً ورضىً من قلوب تقية، أما ابتسامتهما فتتجلى بالتجاعيد المؤرخة لثباتهما وامتداد قصتهما كرفيقي درب وهما الموفيان بعهديهما مع الحب والوطن إذا عاهدا.. القهوة التي حضرتُها بكامل طقوسها التي اعتدتها ما هي إلا امتدادٌ لرفقتي مع القهوة وثريا في دمشق حتى نابلس مع عدنان ومُعزّز.. سبحة بيده ويدها وخشوعٌ ينطلي على المكان والزمان تسبيحًا وحمدًا بذكرٍ موصول غير منقطعٍ حتى الارتقاء..

اقترح عليّ جدي وجدتي أن نذهب إلى الأقصى في يوم الجمعة لنحظى بالصلاة في أولى القبلتين وثالثة الحرمين الشريفين ومسرى رسولنا الكريم وأرض الرباط، فأفاضت هناء من المشاعر بحديثها عن القدس ومرابطيها الحُماة الصامدين على أعتابها وحول أسوارها وحتى لو كانوا أسرى، حدثتني عن تلك المدينة التي تمتلك روحًا في كل شجرٍ وحجر من زقاقها.. اكتملت الصورة لدي بلوحة دمشقية قدسية تتوسطها أرض الزقاق النابلسية ليكتمل الطريق الذي أتبع إشاراته..

كان الحصول على التصريح من المحتل الصهيوني للعبور عبر الحواجز إلى القدس يحتاج وقتًا ويعتمد أعمارًا محددة خاصةً من الرجال، إقْتَرَحْتُ على هناء أن نذهب إلى سوق البلدة القديمة لشراء ثوب فلسطيني مطرز وشال أبيض وطوق ورد لأرتديه في عيد صلاتي الأولى في القُدس، في طريقي أنا وهناء وإذا بصوتٍ ينادي، فميزت من كلماته أنه يقصدني.. "أنت يا ذات القلادة التي تحمل الصورة"، إنه ذاته العم صاحب معرض الأنتيكة الذي أهداني ذاك الحجر الأزرق الكريم،

عُدت بخطواتٍ لأصل إليه والفضول يملأني لأسمع مُبتغاه ومُراده خاصةً من أسلوبه بمناداتي:

- تفضل يا عم أسمعك.
- في كل جمعة كنت ألقاه في المسجد الأقصى، عجوز كبير مَهيب بلحية بيضاء، كان دائمًا يتواجد في رحاب الأقصى ذاكرًا يتلو ويُرتل ما يحفظ من آيات القرآن بصوته الجهور.. يطعم الحمام والقطط بطعامٍ خاص يجلبه معه..
- لم أفهم يا عم.. "مقاطعةً إياه"...
- و الأهم أنه يحمل قلادةً كالتي تحملينها تمامًا... والله تشبهها..
- أنا سأذهب إلى الأقصى، دلني عليه أرجوك..
- حسنًا.. لكن منذ أسبوعين وأنا أفتقده..
- لماذا خطر ببالك إخباري، وهل أنت متأكد أنها تشبه قلادتي؟!..."حملتها بيدي وقربتها من ناظريه ليتفحصها"..
- نعم هي ذاتها، شعورٌ دفعني لأصل لسِّر ذاك العجوز بشيء يبحث عنه ويفتقده.. وأنت كذلك عندما رأيتك أول مرة وكأني أعرفك منذ زمن.. في قلادتك قوةٌ وحنين تطلب وليفها.. إحساسي الذي لا يخيب دفعني بما أخبرتك به..

طلبت من هناء أن نغادر إلى البيت على عجل، فالحِمْلُ ثقيل على روحي وقدماي لا تقويان على الخطو أكثر، كنت أحاول استيعاب ما سمعته من العم ومقاومة تكذيب المعجزات غير المتوقّعة، فأنا أريدها

معجزة حقيقية لا وهمًا، فكل ما كان يجول في فكري دليل واحد يقطع الشك باليقين، ألا وهو أن تكون القلادة تحمل صورة ثُريا ومحفورٌ على غطائها اسمها، حينها فقط سأستعيد جدي إلى بيت ثُريا، سأُسلمه الرسائل المحفوفة بالياسمين والخزامى المُعتق، لكن أكثر ما أثار خوفي وحزني وتساؤلي ماذا لو كان هو ذاته يَعرُب فلماذا كُل الغياب والجفاء مُقابل حرقة قلب وانتظار ثُريا طيلة هذه العقود المُضنية، حدثت عدنان ومُعزّز عن حيرتي والمسؤولية والنداء الذي أكاد أسمعه من ثُريا.. كانت كلمات جدي عدنان تُهدئ من روعي وتُصيبني بالسكينة:

- جبل وجبل مستحيل أن يلتقيا، لكنْ إنسان وإنسان فهذا ممكن. قدرة الله لا تُقاس بعقلنا وخيالنا المحدود، في فلسطين قصص لا يكاد العقل يصدقها من غيابات ولقاءات من بعد صبرٍ مرير، وأنت عشت مع جدتك ثريا انتظارها للمقاوم الذي انقطعت أخباره، وعايشتِ ما حل بالشام من قصص غارقةً قهرًا من التهجير القسري خوفًا والاعتقالات تعسفًا والموت بلا ذنب وبلا منطق، وغيرها من بقاع العالم التي لم تسلم من الأهوال اللاإنسانية، الكُل يبحث عن معجزة القدر.. يبحث عن حرية تبدأ بحياة منتقاة لائقة.. بلقاء المُنقطعين أخبارًا أو بعدًا بالمسافات.. بالشفاء من ذاكرة الزمان والمكان المُريبة.. من أفراحٍ يستسقونها فتفيض من حيث لا يحتسبون.. احمدي الله يا ابنتي على من وجدك بقدرٍ حكيم وأعطاكِ طرف الخيط.. ما عليك إلا تتبعه إلى أن تصلي إلى الطرف الآخر..

وعد الله وعطاؤه أكبر من توقعاتنا وسعينا.. وهو حقًا الفعَّال لما يُريد.. اهدئي.. توكلي عليه.. وتفاءلي خيرًا.. هو حكمه وتقديره فاصبري.. وقتما تحصلين على تصريح دخول القدس فسنشُدُّ الرحال فورًا بإذن الله"..

مَضَت ثلاثة شهور ولم أستطع دخول القدس لرفض الاحتلال الموافقة على العبور، كانت التشديدات وقتها صارمة والرفض من دون سبب مُقنع يُعيدني خائبةً بحملٍ لا أقوى عليه إلا صبرًا، فقط جدي وجدتي حظيا بالصلاة فيها نظرًا لعمريهما الجليلين، أمَّا هناء فكانت مرافقة دائمة لهما لذلك كان دخولها سهلًا.. كانت مهمة هناء وصيتي لها بالبحث عن عجوز يحمل ريح قلادتي.. وبحثت عنه ولم تجده، حتى العم الذي كان يلتقيه في كل صلاة جمعة مقدسية، زرت معرضه وكان رده خائبًا بمواصلة غيابه المتواصل، العم الذي صرتُ أعتمد عليه في كل جمعةً يعبُر فيها الحاجز المقيت إلى رحاب القدس.. ولا لقاء بيعرُب.. إن كان هو حقًا يعرُب.. امتداد غياب العجوز لخمس صلوات جمعة متتابعة يُشعل صبر الانتظار لينكشف المستور من القدر..

في المرة الأخيرة أعطيت العم رقم هاتفي إن التمس حقيقة وسرَّ العجوز، خرجت من المعرض مُنهكة رافعةً بصري إلى السماء برجاءٍ لا يخيب متوكلةً مُسلمةً مفوضةً لله خيرًا في الأقدار القادمة، كان المعرض يقابل الجدار الخلفي بنوافذه من المسجد الصلاحي الكبير الذي بُني بعد فتح القدس بقيادة القائد صلاح الدين الأيوبي تيمنًا به، إسْتَرَقْتُ النظر من النوافذ لأرى داخله والمُصلين، أسندت ظهري وضعفي على

جدار المسجد بمناجاة خفية أتساءل بها عن السِّر الذي يمتلكه قائدٌ كصلاح الدين لتحرير القُدس آنذاك من كل أثرِ الطغيان وأعوانه، هُنالك الكثير من الأرواح المُقاومة والمُرابطة بحق ومُحبةٌ للوطن على أرض فلسطين تنسل نسلًا لا ينضب ولا ينقطع، ولكن الخذلان والخيانات والتكالبات من كل صوَب تنهش وتطوق الأعناق، ولا شيء من ذلك سيُطفئ نور ذاك الرباط والعروة الوُثقى من حُب الوطن إيمانًا وحقًا عَليًا، فكُلما اشتدَّ الطُغيان انكشفت الأقنعة وسقطت، وعُلوًا عن ذلك ارتقت المُقاومة بكل أنوارها مترفعةً قابضةً على جمرة الحق واهبةً الطريق أدراجًا ساميةً بالنصر أو الشهادة، فالوعد من الله قائم لا شك فيه بلا سؤال المتى والكيف، وإنَّما بالثبات حقًا بكل ما أوتينا من قوة حتى تكتمل لَبِنَاتُ حصون قلاع الحمى في وقتٍ غير معلوم..

أسمع صهيل الجياد ووقع حوافرها تجري من بعيد.. أحاط فراغَ المكان من حولي غبارُ الأرض التي تسوقهم نحوي، كانوا فُرسانًا بدروعٍ وخوذٍ فضية ويرتدون لباسًا أبيض، يعتلون جيادًا أنصع بياضًا ونورًا، خرجوا من بين الزقاق والحجر والكثير منهم ارتقوا على أرض فلسطين من السماء حتى افترشوا الأرض بياضًا من نور أمام المسجد الصلاحي، اقتربت لأحظى برفع الشعر الغزيز عن عيني جوادٍ أبيض جميل مهيب ينظر إليّ نظر المُشتاق الذي يألفني، إخْتَرَقَتْ يدي نورًا أبدع في تكوينهم، كانوا سرابًا، أيقظتني العجوز في باحة المُصَلى النسائي مشيرةً لي إقامة المؤذن وبدء صلاة العصر...

"غدًا نلتقي"

فلسطين.. نابلس.. صيف 2016 - شتاء2017

صلينا الفجر أنا وجدتي وهناء بإمامة جدي عدنان، موعد القهوة كان باكرًا مع صحوة أحاديث العصافير وتهاليل وتسابيح جَدّيَّ، قهوة فجرية تسبق موعد شروق الشمس بساعة، لتشرق كلمةٌ واحدة من رسالة عُريب ظهرت على شاشة هاتفي بـ "سلام"، كانت بردًا وسلامًا على قلبي وريحانًا اسْتَنْشَقتُهُ من أثر الكلمة وأطايب زروع حاكورة الحديقة، نظرتُ في الكلمة طويلًا لأستريحَ بها، حتى أتبعها عُريب برسالة أخرى تزيدني تأملًا بكلماتٍ أتحسسُ منها وقع أنامله التي خطتها بحضوره ووجوده في هذه الحياة:

- آنسة سارة شكرًا لذوقك وعلى تعازيكِ، غبت طويلًا بسبب ظروف كثيرة منها مرض جدي، ومن قبلها وفاة جدي.. أما بالنسبة للرواية فأنا ممتن على إنهاء تدقيقها سريعًا، عندما أعود إلى عمان خلال أسبوع نُرتب لقاءً وأتسلمها منك.
- وعليكم السلام أستاذ عُرَيْب، أنا في فلسطين حالًا.
- أين؟ في أي مدينة؟
- في نابلس..

- جيد وأنا كذلك، إذن نلتقي وأستلم النص لضرورة الإسراع في نشر الرواية، متى يناسبك؟
- غدًا إن شاء الله؟
- إذن، نلتقي في مقهى "عتيق" في البلدة القديمة الساعة التاسعة صباحًا.. غدًا نلتقي...
- إن شاء الله غدًا نلتقي.. سلام..
- سلام..

ست عشرة ساعةً على الموعد.. قرأت روايته الأولى من جديد، وأعدتُ قراءة الرواية الثانية لمراجعة تدقيقها للمرة الأخيرة، جرّبت كل فساتيني المُفضلة وأخذتني الحيرة في انتقاء الفستان الأنسب لذاك الموعد الصباحي النابلسي، بحثتُ عن عنوان المقهى، كان قريبًا من حارتنا في شارع النصر في حارة الغرب.. عُمُرُه أكثر من سبعمائة عام وكان يُستخدم بايكة لتخزين الحبوب والخشب، وتم تجديده ليكون مقهىً كما اسمه، عتيقًا بأثاثه ومُقتنياته وبقباب سقفه بالأحجار البارزة والتي تُسمى "الريش" وببلاطه العثماني القديم، في إحدى زواياه كان البيانو الأبيض ينقصه عازفٌ أنيق يُحاكيه بأنامله لحنًا حانيًا، ذاك المقهى الذي أتفقده وأتهيأ لمعرفة زواياه قبل يوم غد، غادرت إلى منزلنا في حيّ الياسمينة أُسابق الزمن مع غروب الشمس، وقفت أمام مرآتي مُوبخة نفسي ومخاطبة إياها بـ "هذه مقابلة تسليم العمل الذي أنجزته".. قلتُ لنفسي مُبررةً "ستكون أيضًا مقابلةً صحفية عن روايته الأولى والثانية التي لم تُنشر بعد، وكذلك سأُعطيه نسخةً من روايتي التي استعصت

على الختام".. أنا لا أُريد أن أستمع إلى كُل ما يجول في رأسي.. ولا أريد أن أمنع قلبي عن ذاك السكون والتجلي الذي أتبعه إن كان حقيقةً وخيرًا، فَأَقْتَبِسُ منه نورًا يُضيءُ ظُلمات الروح..

الساعة التاسعة إلا رُبع صباحًا في نابلس القديمة.. شارع النصر فارغٌ إلا منِّي ومن روايته وروايتي التي أحملها.. وقعُ قدميّ يُقربني مسافةً ووجدانًا ويزيدني خجلًا.. إسْتَرَقْتُ النظر من زجاج نوافذ المقهى فكان فارغًا إلا من صاحب المقهى يغلي القهوة على نار هادئة.. وعازف يجلس أمام البيانو.. كان اللحن رفيقًا لي يُطمئنني بأن يومي جميلٌ ثري لا حاجة للتوتر فيه.. هذا اللحن الذي أُحبه ويَستحضر لي ذاكرة الزمان والمكان في حديقة بيتنا الدمشقي مع ثُريا عندما كانت تعزف على العود لحن أغنية فيروز "خدني يا حبيبي ع بيت مالو بواب".. إنتَقَيتُ الطاولة وجلست على الكرسي الخشبي ووضعت نص الرواية المُدققة على الطاولة أمام الكرسي المقابل.. فهو سيجلس عليه.. أشغلتُ نفسي بالكتابة لمقالةٍ جديدة أنشرها في صحيفتي الإلكترونية.. وضعت كفي على صدري فلم أجد قلادة ثُريا، كانت أول مرة أنسى ارتداءها.. توقف البيانو عن العزف.. وصاحب المقهى قام بتشغيل الراديو وإذ بأغنية "صباح الخير يا وطنًا يسير بمجده العالي إلى الأعلى".. وقعُ أقدامٍ مُترددة تقترب مني.. صوتٌ جهورٌ ببحةٍ يسألني:

- حضرتك الآنسة سارة؟

رفعتُ رأسي أمام مَرْآهُ بعَيْنَيْهِ الزيتونيتين اللامعتين، أعرفه وأثق بمعرفتي به قبل أن ألقاه منذ زمنٍ بعيد.. ذاك الأمان الذي احتواني من

عَينيه.. إمْتَلَكْتُ فرح طفلة لم تعرف الحزن أو اليأس قط.. وطوقت المكان والزمان من دون كُل شيء إلّا مني ومنه.. إذًا كان هو عازف البيانو..

- نعم، أهلًا بك أستاذ عُريب، أنا سارة.
- إذًا.. صباح الخير يا وطنًا يسير بمجده العالي إلى الأعلى.. هكذا هي الكلمات.. أليس كذلك؟!.. (قالها و هو يبتسم ويُحَرك الكرسي ليجلس عليه.. يتعرفُ على مُحياي بخجل وأدبٍ وفضولٍ لا أعلم سِّره).

إبْتَسمتُ وأجبته في نفسي: "وأنت أيضًا صباح الخير يا وطنًا يسير بمجده العالي إلى الأعلى"...

ساعتان مَضَتا به ومعه ومنه وإليه، غادرتُ المقهى من دون روايته وروايتي، أحمل معي ضحكاته المجنونة وابتسامته المُبصرة وجودي وأنا أناقشه بمقابلتي الصحفية التي فاجأته بها، كان كثير الكلام.. مُتشعبٌ يتنقل بالمواضيع بطريقةٍ مُثيرة للاستغراب والضحك وبكثيرٍ من التفكر والجمال. كان ماهرًا بطرحه للتساؤلات أو حتى بطرحه الإجابات والبحث عن أصل التساؤلات لها، كان يُبعثرني ويلملمني بفهمٍ جديد فيُضيء عوالم مُظلمة أو مغلقة فانكشفت ضياءً وأوحت لي طريقًا مُلهمًا لإكمال روايتي، مرَّت أعوامٌ كثيرة وتلك الطفلة في داخلي تتقوقع حول نفسها حتى انتثرت واندثرت في ضجيج الانشغال بمقاومة الانكسار مما ألقته الأقدار من متاعب وأحزان واجتهادٍ لالتماس الحكمة بصبرٍ وإيمان وولادات رفيعة جليلة.. قال لي وقتها "ضحكتك

تشبه ضحكة طفلةٍ بريئة.. هذه الطفلة هي حمايتك.. فاحميها جيدًا"..
حدثته عن دمشق القديمة وعن بيتنا الدمشقي وملكته ثُريا.. كان يتفاعل مع كلماتي كطفلٍ يُسعده كُل شيء صادق ويسمعه لأول مرة.. كان متواضعًا وبسيطًا وشقيًا وهادئًا هدوء ما قبل الريح الحانية المُجتثةً للأوهام والضعف والمتشبثة بحقيقة نورانية تستقر قلبًا وروحًا ونفسًا..
عندما طلبت منه أن يقرأ روايتي ليُلقي نظر عينيْه في كلماتها، أجابني قبولًا بكل فضول وامتنان.. فيا ليته يعبر في معاني الكلمات ببصيرة عينيْه الزيتونيتين.. وعدني على إتمام قراءتها لإبداء رؤيته وملاحظاته، وكان الأهم ذاك الوعد بلقاءٍ آخر ليُسلمني روايته القديمة التي كان مُتوقفًا مُستعصيًا على فكرة إتمام صورتها الكاملة، والحدث القريب كانت مناقشة روايته "فتات الخبز" في المقهى ذاته بعد يومين.. عُرَيْب كان كثير الصمت وهو عاقد الحاجبين بانشغاله وخوضه في عالمه السرمدي ليعود حاملًا من صيده الوفير الذي يصبه كلماتٍ تغدق بي لترفعني بقوةٍ بولادة جديدة وفرحٍ وليد.. كلماته التي تزيد من الأفق وحدود السماء اتساعًا وإنصاتًا وسكونًا فيه.. لم أعلم من قبل أنه طبيبٌ يعمل في عيادته الخاصة في إحدى قُرى نابلس، وأيضًا في أحد مستشفيات القدس في أيامٍ محددة.. وحيدًا من دون أخواتٍ أو إخوة.. فارقه والده ووالدته باكرًا في شبابه.. يبدو أن هذا القدر أصابه مُتأخرًا وليس في فترة طفولته كما أصابني.. وكُله مُحكم بقدر..مكتبة سُر مَن قرأ

يا ليت طريق عودتي كان ماطرًا في هذه الأزقّة الدمشقية.. فتخيلته ماطرًا.. وأهديت كُل من مرَّ حولي شيئًا من الفرح الذي لا ينضبُ

بابتسامة أُهديها أو حتى بمساعدة عجوز مار، وبمداعبة كل طفل أُقابله في طريقي، وصلت البيت ومعي كثيرٌ من الياسمين، حدثت جدي وجدتي وهناء بتجردٍ عن المقابلة والتقرير الصحفي مع هذا الطبيب والكاتب والعازف، سألني جدي عن اسمه مرارًا حتى ذكر لي ما كان يحاول تذكره:

- تذكرته، هذا طبيب أمراض قلب، صديقي يتعالج عنده ويمدحه، خاصةً أنه في عيادة القرية يأخذ أجرة رمزية، وكثيرٌ من الفقراء يلجؤون للاستطباب عنده من دون مقابل.. الدكتور عُرَيْب إنساني ومحبوب بوصف صديقي وأهل القرية.

أُحبُّ جدي عدنان كثيرًا، وبما سمعته منه عن عُريب زاد من امتناني وحبي لجدي أكثر وأكثر، دخلت غُرفتي موبخةً نفسي من جديد بأن كُل ما كان مُقابلة عمل لا أكثر، فأنا لا أقوى على المزيد من الخيبات.. أجبت نفسي بتساؤلات عن اتباع القلب المُتعقل بحكمة، فأجبت ذلك بالنكران والمُضي قُدُمًا من دون التفات انشغالًا بعملي الصحفي وغيره.. كان شعورًا مُنغصًا لمواصلة يومياتي من ذلك التجاهل والنكران لما أحببت حقًا.. لتلك الانتظارات للخطو نحو وجوده.

تعمدت الوصول إلى المقهى متأخرةً عن موعد مناقشة روايته، كان المكان مليئًا بالحضور.. والأسئلة تُلقى عليه فيُجيب تارةً وتارةً أخرى هو يتساءل ليُجيب الحضور.. كنت في الصف الأخير أترقبه بشوق وضيق.. إنْتَهَتْ المُناقشة وأحاطه قُراء روايته حاملين الرواية لتوقيعها.. كان أكثرهم فتيات جميلات.. أُجهِش قلبي ببكاءٍ مكبوت

وربما غيرة من نوع خانق.. قابل بصري بصره مرة ومرة.. فانكسر البصر عتابًا وتوبيخًا وربما لا يحق لي كل ذلك.. قابل بصره وبصري للمرة الثالثة فالتَفَتُ بعيدًا مُشيحةً بنظري.. فغادرت المكان من ذنبٍ اقترفته وتجاهلٍ أجبرت نفسي عليه.. مرَّ أسبوع روضت نفسي منه جيدًا وقطعت ذاك الخيط المُوصل إليه، فقطع عليّ طريق البعد عنه ليلقاني من حيثُ ابتدأت من دونه برسالةٍ صوتية على هاتفي: "حضورك كان أنيقًا، كنت أود أن أوقع نسختك من الرواية، أتُراكِ نسيتِ روايتي التي طلبت منك تدقيقها؟ غدًا نلتقي؟"...

فأجبته بنعم غدًا نلتقي، أضعت طريقي إليه رُغمًا وقصدًا فوجدته من حيث أضعته، بل وجدتُني فيه وفي عينيه وفي ضمةٍ من صوته تحتضنني سلامًا لا خوف فيه وفرحًا لا انكسار بعده.. أُريده، أبحثُ عنه، فيجدني منهكةً مُثقلةً من الغياب فيلقاني وحدي لا حِوَل عني..

في اللقاء الثاني وفي طريقي إلى المقهى العتيق كان عزفه يملأ الزقاق بلحن أغنية "أهو دا اللي صار".. دخلت المقهى وهذه المرة أنا من إقتَرَبَتْ منه وبدأت بالسلام.. فالتفت نحوي موقفًا عزفه الحاني بحنوٍّ يلقيه بعيْنَيه وبسلام.. سلمني روايته الثالثة للتدقيق وكانت بعنوان "شمس القدس" رواية طويلة تتعدى الخمسمائة صفحة، فكانت مهلة التدقيق ستة شهور ليكون هنالك فارق زمن بين إصدار الروايتين، سألته عن روايتي إن أتمّ قراءتها فَيُسمعني رأيه.. فأجابني إجابةً لا روح ولا تشجيع فيها مُنشغلًا بشرب قهوته بـ "جيدة ومُلهمة روايتك.. أكملها على عجل".. فأجبته بغضبٍ مُهذب: "وروايتك أيضًا جيدة لا بأس

فيها".. ردَّ عليّ غاضبًا: "لكن أنا لم أطلب رأيك بروايتي لتُبديه بغضب".. اقتربت فتاتان كانتا تجلسان على الطاولة المجاورة من طاولتنا.. ألقتا الصباح عليه، وأخذهما الحديث عن روايته حتى أهداهما توقيعه في نسخة روايته لكُلٍ منهُما وغادرتا المقهى.. سألني إن كنت أريدُ توقيعًا.. فأجبته: "الكاتب لا يعرض توقيعه على القُراء".. أجابني مُحتدًا: "أنت من طلبتِ ذلك وأنا أُذكرك لا أكثر".. فقاطعته أصارع البكاء الذي كاد يفيض بي رُغمًا عني.. تَلَمَسْتُ القلادة لأحتضنها وأُخْمِدَ غضبي فلم أجدها فقد نسيت إرتدائها للمرة الثانية.. هدأت وحملتُ روايته وغادرته بسلام.. وقبل خروجي من البوابة سبقني بالخروج وقال لي مُبتسمًا هادئًا ليلقاني مُتلبسةً بما أُسِّره اتجاهه "لا تكوني عدوة نفسك.. روايتك ألهمتني بجمالٍ لم أعهده من قبل عن دمشق.. سلام".. تجاهلت ما قال وتجاهلت وهج ضيائه من جديد..

إنْقَضَى العام بعامٍ جديد مُتتابع الهطول بمطر الشتاء الرحيم.. كان العام مُزدحمًا بالإنكشافات المُسْتَتِرة المُغَلَفَةُ بلطفه سبحانه من أقداره.. بأرواحٍ عرفناها فألقت من طيبها ما يشفي ويسندُ الروح المُتعبة.. وعرفتُ الطريق بوضوح مُنكشف البصيرة بمعيته سبحانه فلزمته.. وأمّا ذاك العجوز صاحب القلادة مرآة قلادتي، فلم ألتمس ريحه إلى هذه اللحظة، فانكشاف سره يُزيل ثقل الانتظار لكشف المستور عن حقيقة ذاك الشاب الغائب عن ثُريا.. كُنت قد قاربت من إنهاء تدقيق رواية عُريب وأنتظر انتهاء الموعد بفارغ الصبر لألتقيه من جديد.. كان لقاؤه ووصله وتَحَسُّس وجوده من بعيدٍ من دون أن أُلفت نظره.. فتارةً يقرأ

ويحتسي قهوته غارقًا بالكتابة عاقِدَ الحاجبين.. وتارةً يعزف البيانو فأسمع وقع أنامله المفعمة رفعةً بلحنٍ شَجِّيٍ من وحي تحليقِه، وأكثر اللقاءات كانت في الطُرقات النابلسية أو بإتمام عملي في المقهى العتيق بصدفةٍ مفتعلةٍ بقدرٍ يسبقُ فعلي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"الرواية التي لم تكتمل بعد"

فلسطين.. نابلس.. شتاء 2017

قهرٌ يُلازمني في كُل يوم جمعةٍ أقضيه وحيدة من دون جدي وجدتي وهناء، ينطلقون فجرًا عابرين الحواجز الجهنمية رُغمًا عن الاحتلال إلى قلب الأرض المُقدسة.. للصلاة في أقصى القُدس والفطور وقضاء يومٍ قُدسي فيها.. غصةٌ وحُلمٌ يلقيه الاحتلال بالخيبة التي تزيدني إصرارًا حتى يأذن لي الله بالعبور المُقدس حتى السجود..

إشْتَدَّ الهطول بصوت ذاك الارتطام المشتاق ليهتدي على الأرض عطاءً، فسارعت للخروج مشيًا باتجاه المقهى، خبأت قلادة ثريا داخل كنزتي كي لا تتسلل قطرات المطر إلى صورة جدي يعرب، عزمتُ على التركيز وإنهاء تدقيق رواية عُريب ليتسلمها مني بعد عشرة أيام، ذاك النهم لإكمالها ما هو إلا الشوق والضعف الذي ينخر في همتي للحياة التي أحبها، كانت روايته مختلفةً بغرابة قصتها وتتحدث عن ذاك الشاب المُقاوم الذي فقد ذاكرته إثر مشاركته في حرب 1967 في فلسطين. إنقَطَعَتْ السُبل به وبمن حوله بعودته إلى وطنه وأهله، فعاش في فلسطين بين أهلها، وكأنه وِلِد بقدر أن يبدأ بحياة جديدة ووطن يحفظ سره، وعائلة لم يعرف غيرها من بعد فقدان ذاكرته.. قاربت على الانتهاء من

قراءة الرواية وتدقيقها وأنا أبحثُ عن ختامها وتمامها فلم أجده.. كانت روايةً مقطوعةً من الأصل باحثةً عن الأُم والوطن الأصيل وحضن الحنين، الذي يبحث عنه ذاك العجوز بالمُستحيل من دون أثرٍ، أو شاطئ يوصله إلى الضفة المُقابلة..

إشْتَدَّ هطول المطر أكثر.. كان البيانو يفتقد عُرَيب في هذه الأجواء.. صَدَحَ صوت الرعدِ مُسبحًا والبرق مُضيئًا بمزيدٍ من خير الصَيِّب العَطِر.. عُريب أهداني بهجة يومي عندما دخل المقهى مُبتلًا تمامًا بوجنتين متوردتين من شدة البرد.. إتَجَهَ نحوي بضحكته وغروره المتواضع:

- آه.. روايتي التي تعملين بتدقيقها.. جميل إذًا سأتسلمها قريبًا.. أعتقد أنك يائسةٌ أنت من حرمانك الصلاة في القدس.. وأنا كذلك مُنعت من الذهاب كمرافق مع جدي..
- جدك؟! والد والدتك إذًا؟!
- لا جدي فقط، شقيق جدي عُريب، والد أبي توفي منذ عام واسمه عُريب، ووالد أمي توفي منذ عامين..
- لغزٌ تحيرني به.. كُن جديًا ولو لمرة..
- والله لا أكذب، أتممتِ تدقيق الرواية؟!
- بقي القليل.. لكن أظن نهاية الرواية غير مكتملة..
- ليس هنالك ما هو غير مكتمل، هنالك الكثير من النهايات لا يعلم حقيقتها إلا الله بعلمه الغيبي.. جدي ذكرت حاله فيها.. لا تستعجلي فهنالك بقية في الرواية.

- أريد أن أستوعب أولًا عن جدك الذي ذكرته ولم تستطع دخول القدس كمرافق معه.
- هو قريب من هنا في الحي ذاته.. عندما يتوقف الهطول سآخذك إلى ورشته التي يعمل فيها.. ورشة الحفر بالخشب في هذا الحي.. تذكرت.. لا أستطيع اليوم.. تذكرت أني منشغل..
- ما قصته؟!
- أخبرك لاحقًا بسرِّه، هل زرتِ القدس من قبل؟
- لا، مُشتاقة لأكمل المسير من دمشق إلى القدس..
- سبق وأن حدثتني ووصفتِ لي دمشق البلدة القديمة.. صدقًا عشقتها وقرأت عنها فقط لأنك مفعمة بالحياة وصادقة وأثريتِ تجربة حياتك فيها بصورة جلية.. أما القدس فلن أحدثك عنها.. اصبري حتى يشاء القدر وهي ستُحدثك عن نفسها.. سلام..

كان الحوار سريعًا وهو واقفٌ أمامي يتحدث بارتجافٍ من البرد العالق به، وأنا مُتشبثةٌ بقلمي الذي أقلبه مرارًا بارتجافٍ داخلي حتى تنبهت إلى دعوته للجلوس فاعتذر، فدخوله للمقهى كان اضطراريًا حتى يتوقف هطول المطر ويستعير من صديقه صاحب المقهى ملابس احتياطية يحتفظ بها، بدّل ملابسه، وبجنونه وغرابته نشر ملابسه المبتلة على الكراسي الفارغة أمام المدفأة الحطبية، فضحكت ضحكة صامتةً وممتنةً لقدومه بهذا الحال، جلس بجانب النافذة مع صديقه يحتسي

قهوته الساخنة على عجل، دعوت الله أن يستمر الهطول لساعات، خانتني أمنيتي وتوقف المطر بعد ساعةٍ بوجوده الغامر.. عبس وجهي وضاق صدري وهو يُلملم طاولته ليُغادر.. وصل إلى بوابة الخروج ممسكًا مقبض الباب ليفتحه فتعلق بصري به ويا ليتني أغادر ببصري معه.. إلتَفَتَ نحوي فتجاهلت قدومه وأشغلت نفسي..

- سأوفي بوعدي وأعرفك على جدي، سيفيدك ذلك في القضية التي تعملين على البحث فيها عن مفقودي الحروب، سأخبرك بسرٍّ لا يعلمه إلا أنا ووالدي وجدي عُريب، أنا شاكرٌ لك تفانيكِ لإتمام تدقيق الرواية قبل الموعد، سلام.. نلتقي إن شاء الله..
- سلام، إن شاء الله.. لكن أثرت فضولي.. أريد أن.. "قاطعني عُريب"..
- سلام (مُغادرًا مُشيرًا بكفه إلى اللقاء القادم)..

سلام.. هذه الكلمة التي أفهم من سماعها أو قراءتها بأن للحديث بيننا بقية، ولقاءات شغوفة بالوصل وكشف النور المستور في جعبة كلينا.. لأعود وأستفيق موبخةً نفسي من جديد..

"الذاكرة المفقودة.. نهاية الرواية"

رواية شمس القدس

فلسطين.. 1967

مَضَى شهر على حرب1967.. كان قرارًا خطيرًا ألزم الطبيب عُريب نفسه بتنفيذه، حفاظًا على حياة ذاك الشاب المُشارك في هذه الحرب من الأسر في الزنازين من قبل عصابات الاحتلال الصهيوني.. حفاظًا على مصيره من صيد أخبار الخونة مقابل حفنةٍ من الدولارات.. ذاك الجريح الذي فقد ذاكرته ويحتاج الوقت الطويل للوقوف على قدميه.. حينها كان الشقيق الوحيد للطبيب عُريب على مفترق الحياة يجاوره سرير ذاك المُقاوم الذي انقطعت ذاكرته وطريقه عن الأهل والوطن.. توفي شقيق الطبيب بمرضه الذي لازمه طويلًا، وكان قرار عُريب بين قرارين لا ثالث لهما.. فإما أن يُؤسَر فقيدُ الذاكرة في غياهب الجب الصهيونية فيكون أسيرًا بلا اسم أو هوية، وإما أنْ يُبدّل الأدوار ما بين شقيقه جميل الذي فارق الحياة مع المُهدد بالأسر موتًا في زنازين الظلام، فكان الخيار الثاني قائمًا لا رجعة فيه.. ما ألزم الطبيب الانتقال بسكنه من مدينة نابلس إلى أحد قراها حيث منزله القديم..

منذ لحظتها كان اسم ذاك الشاب التائه في المكان والزمان جميل شقيق عُريب.. فَقَدَ كُل ذكرياته وطريق وطنه إلَّا صنعته في حفر الخشب وتصنيع الأثاث، لتُعينه على الحياة والانشغال والتَسّلي بالبلاء العظيم من النسيان، لم يستطع الطبيب عُريب من معرفة أصل موطنه من لهجته.. كانت لهجته مبعثرة ولا يكاد ينطق إلا ببضع كلمات، حتى باتت لهجته تشبه لهجة أهل هذه القرية والمدينة.. كان صِيتُه لامعًا ببراعته وفنه بين أبناء المهنة بتصميم الأثاث والحفر على الخشب وتصديفه، لينال مهنةً دائمةً في أكبر ورش نابلس والقدس أيضًا.. كان ينتقي التصاميم ويدُرب المبتدئين بكل عطاء وحب لهذه المهنة... جاء به القدر ليكون أصله متجذرًا بقية حياته في هذه الأرض المقدسة.. كانت أزقّة وحواري وساحات وجدران القدس والأقصى شاهدة على رباطه فيها صلاةً وحقًا يصدح به صوته الجهور لا حِوَل عنه.. ذاك المُقاوم من الأرض التي لا نعرفها حتى الآن.. لكن ما نعرفه جيدًا أنها أرض الشرفاء الذين وطئوا أرض الحق دفاعًا ووهجًا بذاك الانتماء للأرض وعشق الوطن.. جميل لم يتبقَّ من ماضيه إلا الشال المُطرز باسمه الحقيقي.. وتلك القلادة التي تحتضن صورة فتاة جميلة، وأظن اسمها هو ما حُفر على غطاء القلادة الخلفي..

يئس الطبيب عُريب من محاولاته مع جميل بإخضاعه للعلاج في محاولاتٍ لاسترجاع ذاكرته.. فكان له الأخ الحاني والرفيق الوحيد.. كانت أعوامه الأولى في فلسطين عصيبة بتلك النوبات التي تُثير الألم في رأسه في محاولات التذكر.. صورته في المرآة التي لا يكاد يعرف فيها

نفسه.. كان ألمه كالحفر في الصخر لالتماس طرف الخيط المُفضي إلى بيته وأهله ونفسه التي يبحث عن حقيقتها.. أعوام عدة حتى استيأس وأسلم القدر حيث يشاء الله.. القدر الذي بات ينتظره على عتبات الياسمين الذي يحب.. فكانت قلادته حقيقته الوحيدة التي جعلها رفيقته في عنقه ظاهرةً للعيان لعله يجد ريح حبيبته، ذاك الاسم المحفور في آخر ما امتلكه.. جدي جميل كُل ما تبقى لي من ريح جدي عُريب.. أمَّا عن حقيقة سره فكان متوارثًا من جدي عُريب حتى حفظه أبي ومن ثم ورثت سره إلى هذا اليوم..

"قلادة وموزاييك دِمَشْقُدْسِي"

نابلس.. القدس.. صيف 2017

أرّقتني تلك النهاية لذاك العجوز التائه في نهاية الرواية التي أتممت تدقيقها لعُريب، ومع ذلك ما زلت أظن أنها مُثيرة لذاك الفقد والنقص والتيه الذي أبحث فيه عن بؤرة انكشافه، كان خياله واسعًا في تلك الحبكة المُثيرة للتساؤل والقلق. بقي يومان على تسليم روايته المُدققة، والفضول يدفعني لأسئلة عن تلك القصة وكيف استوحاها من خياله ومصدر كل ذلك الخيال.. أو إذا ما كانت القصة وقعت أحداثها حقًا، تذكرت أنه وعدني بزيارة شقيق جده ليعرفني إليه، فتنبهت ولفتت انتباهي تلك الشخصية للعجوز التائه جميل، أصدعني الألم في رأسي، حملت هاتفي وأرسلت له:

- سلام عُريب، غدًا نلتقي، سأسلمك الرواية، إنتَهَيتُ من تدقيقها.
- أهلًا سارة، أنا أعتذر، أنا الآن في عمان منذ يومين وغدًا في إسطنبول، بعد أربعة أيام سأعود إلى فلسطين، هنالك حفل توقيع روايتي وندوة لمناقشتها، نلتقي إذًا، سلام.

مُوحشة المدينة من دونه، انطفاء يسري في ذلك الوهج المُتعطر من إطلالته أمامي والاشتياق لصباحاتي القريبة من آثاره في المقهى العتيق ووقع أقدامه في شوارع مدينتنا، ذاك عجوز الرواية الذي لم يغادر مخيلتي قط منذ أن أتممتها، كان هنالك فضول لألقى عُريب لسبب مجهول يؤرقني ويُثير تساؤلاتي عن ذاك العجوز التائه.. هي رواية ليس إلا.. وشخصية مُتخيلة لا أكثر.. لكن ماذا عن القلادة والشال المُطرز.. وفضولٌ يزيدني لأتعرف إلى شقيق جده عُريب.. وماذا عن ذاك الرجل صاحب المعرض الذي التقى في القدس بعجوزٍ لديه قلادة تشبه قلادتي.. وهنالك تساؤل أهم وهو أنه قلما يرتدي عجوزٌ قلادة تثير الانتباه.. إلا لسببٍ وجيه لا يعرف سره إلا صاحبه.. كما في نهاية رواية عُريب رواية "شمس القدس"..

كانت ليلة طويلة لا راحة فيها بل أرقٌ يزيد من ألم رأسي وعينَيّ اللتين تعبتا من التحديق في الفراغ، مشوّشتين من كُل التساؤلات والإشارات التي تتقاذف من حولي ولا أقوى على تجاهلها. أربعة أيام فترة طويلة جدًا لألقى عُريب وألقي الثقل الذي يتكاثر في كل ما حولي ولا أعرف ماهيته وحقيقته، أذكر أن عريب ذكر اسم الورشة التي يعمل فيها جده أو كما أخبرني حقيقةً أنه شقيق جده، فعنوانه قريبٌ من الحي المجاور ولا بأس إن زرته بصفتي أنتقي أثاثًا لبيتي.. أسندت رأسي إلى الوسادة باكيةً موبخةً نفسي بالجنون الذي يُلقي بتلك التساؤلات والتوقعات والاستنتاجات التي لا ولن يُصدقها عقلي، ذاك البكاء كان تصديةً وهروبًا من إشاراتٍ تلاحقني وأجدها في طريقي واضحةً لا

كذب ولا زيف فيها، كان بكاء خوفٍ من اللامعقول والمستحيل الذي لا أريد أن أتحمل عقباته وترقب وتتبع إشاراته.. كان خوفًا من الجنون.. أو ربما مواجهة حقائق تُلقي آثارها في طريقي فأتبعها فتقطعني تائهةً كما أنا في هذه اللحظات..

لا شيء يُسكِنُ حيرتي، وخوفي، ووحدتي كسجودٍ ومناجاةٍ لله، تلقيها جنبات النفس المُتوسلة بذاك البكاء المُتَوَقِدِ حتى يسكُن بفسحة روحٍ وبتجلٍّ يرفعني بسباتٍ لا ذاكرة فيه.. فينزع مني ثقل الحياة وتبعاتها.. فأستفيق بمعيته قوةً وهمةً وإيمانًا لا خوف ولا جزع فيه من بعده.. كانت غفوةً كمئة عامٍ من الراحة والسكينة.. كان وجه ثُريا مُضيئًا بجمالها الثلاثيني.. ابتسامتُها تدعوني لاحتضانها شوقًا بفرحٍ تشدو به راقصةً في وسط النور..

الساعة السابعة إلا ربع صباحًا في مدينة نابلس القديمة.. الأزقّة التجارية شبه فارغة ومغلقة.. عربة الكعك والبيض تصدح بالحي إيذانًا لطلب رزقها.. إتَجَهْتُ إلى الحي الذي توجد فيه ورشة جد عُريب أقصد شقيق جده الذي لا أعرف إسمه أو كنيته.. خطر في ذاكرتي اسم جميل في الرواية فضحكت من نفسي لربط قصة خيالية في رواية عُريب لأتنبأ باسم شقيق جده، كانت اللافتة واضحةٌ باسمها واسم صاحبها عن بعد.. ربما كانت استعارة أسماء لا أكثر.. ورشة الفاضل لتصميم وتصنيع الأثاث لصاحبها جميل الفاضل.. إذًا هو شقيق جده وهذه ورشته.. والاسم ذاته كما في الرواية، والأبواب مُشرّعة يجلس أمامها صبيان يحتسيان الشاي مع الكعك والبيض اشترياه أمامي من صاحب

العربة. تقدمت نحو الورشة وسألتهما عن العم جميل، فأخبرني أحدهما أنه سيغيبُ في القدس عشرة أيام ليُتابع بعض أعمال الورشة التي يُشرف عليها هناك وبسبب مراجعة طبية، استأذنتهما دخول الورشة فكان ترحيبًا لي بالقبول.. كانت قطع الأثاث محفورة بمهارة ودِقة.. والكثير منها كان يتبع فن الحفر والتصديف.. كانت تشبه فن الموزاييك الدمشقي في الشام في ورشة جدتي.. وكنت أظن هذه الحرفة منتمية لأهل الشام فقط. أخبرني الصبي أن تصنيعها يتم أكثره في القدس ويتم بيعها لزبائن نابلس، رفعت ناظري إلى الجدار فانكشفت الغُمَّة عن بصري حتى انشرح صدري بما أرى.. سألت الصبي عن صاحبَيْ الصورة فأجاب "مُعلمنا جميل وأخوه المرحوم الدكتور عُريب".. طلبت من الصبي أن يُنزل الصورة من الحائط.. تأملته جيدًا وأقسمت بيني وبين نفسي أنه جدي يَعرُبْ.. ذكرت ذاك التسليم وتلك السكينة التي استنجدت بها الله فاستقرت نفسي إلى أن ألقى عُرَيْب.. ربما كان تشابهًا لا أكثر، ربما كان حُلمًا أو حقيقةً انتظرتها ثريا إيمانًا لا كُفر فيه ولا ردة، سألت الصبي إن كان العم جميل يرتدي قلادة تشبه القلادة التي أرتديها.. فكان رده إيجابًا لا نفي فيه، تحسست الموزاييك القدسي بخشبه وصدفه فكانت أنفاسه الغارقة لإتمام هذه القطعة تحاكي ذاكرته من الموزاييك الدمشقي الذي أعرفه جيدًا.. حينها فقط استنجدت بعُريب شوقًا للقائه وبوح ما يثقل كاهلي بين عينيه.. ذاك الشوق الذي لا راحة فيه.. استذكرتُ القصص التي نسمعها في هذه الأرض وننتشي فرحا لاستحقاقها واستغراب حقيقة وقوعها كمعجزةٍ تكسر المألوف وتجبر

الانكسارات التي يئست من الجبر.. كُل شيء بقدر لا يعلم مساره الحكيم إلا هو حيثما وكيفما وأينما يشاء..

هذه المرة كان قدومي إلى موعدي مع عُريب مُتأخرًا.. ربما بسبب عجز الخطوات عن المُضي قُدمًا نحوه.. توقفت كثيرًا وجلست على عتبات أدراج المدينة القديمة تارةً وتارةً أخرى كنت أختبئ تحت قناطر (أقواس عيرني كتفك) فألتحف بذاك الحُب بين الحبيبين اللذين أُذِن لهما لتكون هذه القناطر شاهدةً على تلك الغرفة المُستَنِدَةُ على جدارين، يزين أسفلها قوس حجري ترحيبًا بالمارين أسفله إلى يومنا هذا.. اتصل عُريب قلقًا من تأخري فكنت وقتها ناظرةً إليه من زجاج البوابة والثقلُ يضيق بي وبكلماتي التي ضاقت من الحقيقة التي لا أكاد أقوى على استيعابها أو حتى تصديقها والبحث عنها.. فتحت بوابة المقهى.. وجلست أمامه من دون أن أنبس بحرف.. إحْتَرَمَ عُريب ذاك الوجه المُتألم للفتاة التي تجلس مقابله.. ما عدت أُفرق إن كان يتوجب علي أن أكون بهذا الحال أم أنّ ما التقيته من إشارات مُقدرة مَدعاة للفرح والأمل بتحقيق المستحيل.. كان حوارًا مُختصرًا بيننا وكثيرًا من ذاك العون والاستنجاد الذي أتخيله من وهج عينيه الزيتونيتين:

- عُريب.. لقد قلت لي أنك ستخبرني بسِّر وأظن أني علمت به في طريق هذه المدينة، إذًا جميل في الرواية هو ذاته شقيق جدك؟!
- نعم صحيح، وهل لكُل هذا الإستنتاج والتنبؤ الذي أصاب الحقيقة مدعاة للقائك بهذا الحال؟! "قالها تارةً غاضبًا وتارةً ضاحكًا مُستغربًا بصوتٍ منخفض"..

- أريد أن أقابل جدي يعرُب.
- لم أفهم، اسمه جميل شقيق جدي عُريب.. وليس يعرب... غريبة الحال أنت.. أطلب لك القهوة لتستفيقي؟
- أريد أن أقابل جدك جميل.
- هو في القدس، سَيَعود بعد غد بعد صلاة الجمعة في الأقصى، وأنا كذلك حصلت على تصريح بصفتي طبيبًا ولديّ مرضى مراجعون في مستشفى القدس، وسألقاه غدًا.
- وأنا كذلك حصلت على تصريح العبور.. أريد أن ألتقيه في رحاب القدس.
- لا بأس، نلتقي هنالك.. لكن.. لماذا تُصرّين على لقائه.. بإمكانك انتظاره هنا حتى يرجع نابلس.. استيقظي.. ما بك!!؟
- هل تذكر القلادة والشال المطرز المذكورين في الرواية.. أجبني عن حقيقة ما نقش عليهما.. أو أنا سأجيب.. القلادة نقش عليها اسم ثريا.. وصورتها في جوف القلادة.. والشال مُطرز عليه اسم يَعرُب.. أليس كذلك!!

كان وجه عُريب صامتًا عاجزًا ومتوسلًا لفهم حقيقة ما أقول.. أخرجت له قلادتي التي أرتديها مخفية في ثنايا شالي، فتحت الغطاء وسألته وحنجرتي تتلعثم وتتعثرُ من البكاء:

- هذه القلادة ماذا نقش عليها؟! يعرُبْ اسم جدي.. والصورة التي في داخلها صورة جدّي يَعْرُب.. والشال المُطرز أخاطته جدتي ثُريا..

- إذًا نلتقي في رحاب الأقصى.. لعله يتذكر من أحب.. فيلقى طريقه الذي أضاعه.. إذًا كما أوصاني جدي عُريب.. أن ألتمس قبسًا من النور لأجل جميل.. أو منذ هذه اللحظة يَعرُب.. هذا مدعاة للفرح.. لما البكاء...

قالها والدمع يحتبس في عينيْه حتى فاض بتلك الضحكة التي أحملها معي منذ أن سمعتها لأول مرة منه.. لم يكن هينًا علينا لملمة الإشارات المنطقية وإسقاطها على واقع من هم بيننا.. تصديق ذاك القدر الذي كان وقعه على أبصارنا وأسماعنا كما الفجيعة المؤلمة.. ربما كان اليأس واستبعاد ذاك الوصل من بعد عقود الانتظار.. التيه.. ألم جدي يعرُب بنوباته التي يصيح من عصفها ريحًا تزلزله بلا ذكرى يلقاها.. محاولًا في كل مرة أن يلتمس قبس نورٍ يرشده إلى طريق العودة للذكريات المؤنسة للقاء الأهل والوطن.. وللقاء نفسه التي يجهلها..

"في القدس سنلتقي.. ما تَبَقَّى لنا"

القدس.. صيف 2017

كُنا أنا وهناء منذ الفجر مع آلاف العابرين ننتظر عبور الحاجز إلى القدس، من دون جدي وجدتي المُتجهين إلى أرض مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة، سألتهما ماذا سيكون دعاؤكما لي، فكانت إجابتهما "يسّرَ الله طريقك بالسلام حيثما اتّجهتِ وسخَّر لك أهل الخير والسلام"، صدقًا هذا ما أحتاجه في هذا العبور إلى حيث من أنتظره بلقاء أظنه حلمًا، ليست أمنية العبور بسلام فقط عبر حاجز قلنديا، وإنما هذا العبور المُتصل بوجود أرواحنا على هذه الأرض المضطربة.

حاجز قلنديا بات حُلم العابرين من الضفة الغربية إلى القدس.. للصلاة في الأقصى رباطًا مُقدسًا يتجذر فيه رُغمًا عن تلك الحواجز الإسمنتية الهَشّة.. لكسب لقمة العيش.. للعلاج في مستشفياتها.. ولحُبهم لتلك الأرض المُقدسة وصلًا لا انقطاع فيه رغمًا عن سياسات التفنن في الشتم والإذلال والتأخير ورفض العبور المتكرر لمن يحملون التصاريح.. والقتل قنصًا برصاصهم بدون رحمة على هذا الحاجز من قبل العصابات المُحتلة، تم بناؤه عام 2000 ليكون حاجزًا رئيسيًا يفصل

شمال الضفّة الغربيّة عن القدس، ليكون أحد المداخل القليلة للقدس من جهة الضفّة الغربيّة والذي يتحكّم بحركة الفلسطينيين ضمن جدار الفصل العنصري.. ذاك الجدار العازل الذي لا ولن تخور ولن تُهزم الهمم ترحالًا ورباطًا في القدس رغمًا عن قسوته الزائفة.

كان يفصل بيني وبين جدي يَعرُب وعُريب مسافة قليلة زمانًا ومكانًا.. إلا أنّ حاجزًا كهذا يحيط به الجنود الذين يشيرون ببنادقهم حول رؤوسنا، والذين يتبعون سياسات التضييق والتأخير والإذلال ضربًا وشتمًا أو حتى قتلًا كفيلٌ بأن يُضيم قلوبنا قهرًا يتلوه صبرٌ حتى الوصول إلى الجهة المقابلة، فما ننتظر لقاءه يستحق كل هذا العناء.. إلْتَحَفَنَا الحرُّ بكبيرنا وصغيرنا.. كان أكثر العابرين شيوخًا شامخين بقاماتهم رغم انحناءتها.. أعمارهم أطول من عمر الاحتلال الغاشم على أرضنا.. أكثرهم مرابطون منذ عقود بترحالهم إلى الأقصى حتى تسجد الجباه على أرضها المقدسة فتطيب الحياة رفقًا بهم.. تذكرت جدي يَعرُب وما حدثني به عنه عُريب.. تعلّقه بالقدس وحواريها وأزقّتها وأقصاها صلاةً لا انقطاع فيها، فربما كانت تؤنسه باللاشعور بالحارات الدمشقية القديمة التي تشبهها.. حدثني عُريب أيضًا عن تعلقه بطيورها وقططها التي تتلهف للقائه فيُكرمها إطعامًا وإحسانًا.. شغفه وحبه لمهنته ولورشته الموزاييك في القدس التي أثقلت كاهله من دون يأس للوصول إليها من بعد عبورٍ شاق منذ أن نشر الاحتلال سياسات التضييق لدخول القدس عبر الحواجز والموافقة المسبقة على ذلك.. إلى أن صدرت قوانين تسمح لمن هم فوق عمر الخمسة والخمسين بالعبور من دون تصريح..

عبرنا حاجز قلنديا.. إتَفَقْنا مع عُريب للقائه عند باب العامود لنتجه إلى ورشة جدي يعرب في القدس القديمة في سوق طريق الواد.. إذًا للقدس القديمة سورٌ عظيمٌ وأبوابٌ عديدة كمدينة دمشق بسورها وأبوابها الحامية.. نسمةٌ أراحت تعب ساعاتٍ طويلةٍ من الانتظار.. وللانتظار واللقاء بقيةٌ من الحياة.. من ذاك الشوق المُحَمَّلِ بعناقيد العنب وأطواق الياسمين ورسائل الحب رغمًا عن الحرب.. من رحاب دمشق إلى رحاب القدس.. من ثريا إلى يعرُب..

سألتني هناء عن حالي وشعوري وأنا في طريقي للقاء جدي يعرب.. أجبتها "حياة ستشرق بفتح بوابة بيتنا الدمشقي من جديد.. ووفاء باستحقاق وعد جدتي ثُريا.. استحقاق العودة إلى عتبات الياسمين المُنتظرة"..

إذًا هذا هو باب العامود المُنتصر بتشبثه بالسور العظيم عن اليمين وعن الشمال.. تم تدميره عدة مرات خلال الحروب على القدس، حتى أعاد بناءه من جديد سليمان القانوني إبان الحكم العثماني.. حيث قام بتصميمه المعماري درويش الحلبي القادم من حلب إلى القدس حيث استقر فيها.. ذكرت لي هناء بأنه سُمي أيضًا باب دمشق نسبة إلى وجهة المسافرين من خلال البوابة إلى دمشق قديمًا، كما سُمي باب نابلس لأنه يتجه نحو نابلس.. وكان الباب قبل حصار القدس أوائل التسعينيات البؤرة الذي تنطلق منه وإليه الحافلات من جميع أنحاء الضفة الغربية والقطاع قبل سياسات التضييق والتهويد.. هي البوابة الأجمل بقوسها المنحني المُفضي إلى باحات الأقصى المبارك.. من هذه البوابة "بوابة

دمشق" سأعود مع يَعرُب إلى دمشق القديمة، ومنها سألتقي بعُريب ليوصلني لذاك اللقاء، كان يترقب الوجوه بحثًا عني عند مدخل البوابة في ساحة باب العامود أو ساحة الشهداء التي ارتقى فيها شهداء مقدسيون.. وبعد تفتيش الاحتلال خطوت نحوه وهو يدعوني بعينيْه قُربًا بتلك الضحكة المجنونة.. عبرنا من هذه البوابة عبورًا لجنةٍ بزفافٍ أنيق أحمله ارتقاءً عبر أدراجها وحاراتها وبيوتها التي أعرفها جيدًا من جنة دمشق البلدة القديمة.. أنا مدينةٌ لهذه المدينة المقدسية التي اهتدى إليها جدي.. وهذا هو سر حب وتعلق جدي للمُكوث فيها معظم أوقاته مُنشغلًا بحرفته التي يحب.. فيها ريح وقبس من نور يؤنسه بمدينته التائه عنها واسمها دمشق..

الطريق إلى يعرب زاخرٌ مهيبٌ لا وحشة فيه.. طريق الواد هو الطريق الرئيسي إلى المسجد الأقصى.. كان واديًا عميقًا وملتقى بين تلة غربية وشرقية حتى مُلئ بالصخور والتراب ليكون كما هو طريقًا عامرًا بالمباني ذات القناطر والأقواس التي أعرفها باسم "أقواس عيرني كتفك".. طريقٌ مزدهر بأسواقه الأثرية المسقوفة بالقباب ومنها مفتوحة... طرقات مرصوفة بالأحجار ودرجات (عقبات) تفضي إلى كل ما يهنأ به البصر ويستقر تبجيلًا بالقلب، هذا الطريق الذي يمتد بين باب العامود في شمال المدينة وحتى حارة الواد بالقرب من حائط البراق جنوبها.. طريق الواد يتقاطع معه طريق الآلام الذي مشى فيه المسيح عليه السلام قبل أكثر من ألفي عام وهو يحمل صليبه (وفقًا للعقيدة المسيحية)..

أشار لي عُريب إلى ذاك العجوز المُحاط بعاملين، كان يرشدهما إلى كيفية تطعيم الخشب بالصدف أو العظم بقطعة أثاث بديعة الصنع. تشبثت قدماي بالأرض التي أقف عليها أترقبه وأتحسس ملامحه.. عجوزٌ أنيقٌ يضع الشماغ الفلسطيني والعقال بلباسه المدني، أبيض الشعر واللحية مُحمَّر الوجنتين والجبهة.. أخضر العينين عاقد الحاجبين كعُريب.. أخبرتني جدتي ثريا بصوته الجهور وببحته المميزة.. لمعت القلادة في عينيّ حتى استفاضتا دمعًا أغشى صورته فخشيت من غيابه لحظتها فأزلت آثار دموعي، أن نطلب ذاك اللقاء بفرح فهذا يعني أن نقاوم الخوف بشجاعةٍ ونَهَبُ اللحظات استحقاقًا أنيقًا بما تبقى لنا من الصدق والحب.. استجمعتُ شجاعتي.. خبأت قلادتي.. إقْتربنا من جدي.. عَرَّفنا عُريب على حضرته العزيزة عليّ.. كانت عيناه تضحكان ترحيبًا.. أقسم عليَّ أن يُحَبِبَني بالقدس ويُعرفني ويُحدثني عن المدينة القديمة في طريقنا إلى الأقصى، وعندما علم أني من دمشق.. تأوه بذاك الألم الذي جمع كل التأوهات أسىً وحزنًا على ما أصاب الشام وأهلها من البلاء والضيم..

كان جدي يعرب يترقب تلك النظرة الأولى التي ستكشف لي حضور القبة الذهبية في رحاب الأقصى في طريق قُربنا منها، وصلًا بقدسية وتجليات أرضها وسمائها، تلك النظرة الأولى التي أصابت قلبي عشقًا وإيمانًا يشفي تلك الندبات المنسية، أقمنا صلاة الجمعة بسجودٍ عظيم للعابرين من قلب المدينة ومن كل القادمين المرابطين من أرض فلسطين، أن ننتهي من الصلاة والدعاء فهذا يعني أن نلتقي بعُرَيب وجدي يعرب لنغادر إلى نابلس، وهذا يعني أيضًا أن أجلس مع جدي

في باحة الأقصى لأجده ويجدني، حملٌ ثقيل أوصتني به جدتي ثريا إيمانًا به.. فظننته بقايا أمل أزُّفه لِيَعرُب.. فكان الأمل بعين اليقين وحمل الجبال على كاهل تلك الطفلة التي تبقت مني.. كان جالسًا بعد الصلاة يُرتل الآيات، كان مُحاطًا بالقطط والطيور التي لم ينسَ نصيبها من الرزق الطيب.. إتَجَهْتُ نحوه فقام بهيبته مُرحبًا بي من جديد...

- حدثني عُريب أن لديك أمانة لي.. تفضلي يا ابنتي.. ما هي أمانتك.. (سألني مبتسمًا خجولًا)..
- لن أبدأ بالمقدمات يا جدي.. قلادتك تحمل اسم ثريا وصورتها أليس كذلك.. وأنا كذلك أحمل صورتك على قلادة جدتي واسمك عليها.. أنت جدي يَعرُب... (وأنا أتعثر بالكلمات وأحتبس البكاء، وأحمل القلادة بكف يدي والشال الخاص بجدتي ثُريا المُطرز باسمه)..

بدت ملامح الاندهاش مع الحزن تصبغ وجه جدي، كان ينظر إلى القلادة تارةً وإلى قلادته التي يحملها بكف يده تارةً أخرى، أخرج منديله فكان الوصل جميلًا، لم تحمله قدماه فأسندته حتى جلسنا على درجات باحة الأقصى، نظر إليّ بعينين تقطران دمعًا عزيزًا عليّ:

- تعودت على ما أنا عليه منذ خمسة عقود، بلاءٌ عظيم ذاك التيه في النسيان.. لا أريد أن أتيه من جديد في ما لا أقدر عليه.. أنا ابنُ هذا البلد.. ابن القدس ونابلس..

أخرجت ألبوم الصور، صور حبه مع ثريا، مع عائلته ذات الأصول التركية المهاجرة إلى دمشق منذ طفولته حتى شبابه في حي المهاجرين،

صوره كمقاوم مع أصدقائه المقاومين في وجه الاحتلال الفرنسي حتى الحرية، مقاومته إلى جانب رفيقته ثريا.. مقاومته في وجه الاحتلال الصهيوني في فلسطين.. حدثته عن حرفيته في كل أنحاء بيتنا من الموزاييك الدمشقي، حدثته عن دمشق القديمة بكل ما فيها من حارات وأزقّة وقناطر وبيوت دمشقية تشبه القدس.. حدثته عن بيتنا الدمشقي الذي يشتاق إليه..

- أنا؟!!.. هو ذا أنا؟!!. لا أقوى على كل ذلك الحمل... حاولت أن أتذكر حتى عجزت.. هذا وطني الذي يسعني رغم الضيق من الاحتلال.. ورغم ضياعي.. (يسأل كطفل اختلطت معه مشاعر الحزن والفرح والصدمة من كل ما يرى ويسمع)..
- جدي يعرب، أنت جدي يعرب.. أنت مؤمن.. وجدتي ثريا كانت تؤمن بقربك..
- حدثيني أكثر.. حدثيني أكثر عني وعن كل شيء لعلني أتذكر.. (قالها وهو يبتسم ويحمد الله ببكاء رحيم وهو يتصفح ويتحسس وجوه من في الصور بأنامله).. فيتأملني بعدها.. ويتَحَسس ملامح وجهي باحثاً عن ما أضاعه.. حتى احتَضَنني بإرتجاف.
- سنذهب إلى دمشق.. إلى بيتنا.. إلى زقاق طفولتك وشبابك.. صديقك المُقاوم منذ الحرب ما زال على قيد الحياة.. أطلق اسم يعرب على ابنه.. كذلك شقيقك عمي عادل وشقيقتك خالتي أم عمر..

- ما اسم هذا الرفيق؟! أين صورته؟ لعلي أتذكره..
- عمي إحسان.. أبو يعرُب.. سنذهب إلى دمشق.. سيسعد هو بذلك.. سيطيب جرحه إثر فقدان حفيده في المجهول..
- لا أقوى على فراق القدس.. لم يبقَ من العمر بقية لأحاول العودة إلى الماضي.. دعيني وشأني كما أنا عليه.. (يقولها وهو ينتحب بكاءً ويُخفي دمعه)..
- الشام من الأرض المقدسة.. وقلبها القدس.. انتظارُ جدتي ثريا يستحق العودة ولو لبرهةٍ من الزمن.. سنرجع إلى القدس ونابلس أعدك جدي..
- الحمد لله.. الحمد لله.. والله على ما يشاء قدير.. جدتك في دمشق الآن (رددها وهو يمسح ما استقر من دمعه على وجنتيه سكينةً ووقارًا)..
- جدتي توفيت.. أوصتني أن أتتبع أثر نورك.. أوصتني أن آخذ من تراب قبرها وأعبقه بماء بحيرتنا والياسمين وأن أخلطه بتراب قبرك إن كنت راحلًا.. لكن والحمد لله أنت حي، وهنالك الكثير من الرسائل كانت تكتبها جدتي لك وتحتفظ بها في صندوقها الخشبي.. والكثير منها كانت ترسلها عبر عناوين المنظمات الإنسانية في القدس لعلها تشتم ريحك.. سنزور قبرها.. ستفرح بذلك..

يَعرُب يَتَطَيبُ بالياسمين الدمشقي

دمشق شتاء 2018

إذًا سنعود إلى دمشق.. أنا وجدي يَعرُب برفقة عُريب أيضًا.. وضَّب جدي حقيبته الصغيرة لغياب أسبوعٍ لا أكثر، فهو لا يقوى على فراق القدس والصلاة في الأقصى، أخذ كيسًا يحمل فيه ترابًا من باحة الأقصى، أوصاني أن أنثره على قبره وقبر ثُريا في دمشق إن شاء القدر أن يكون ختام عمره في مسقط رأسه، كان وطنه الأكبر ذاك الذي أمضى فيه خمسين عامًا؛ القدس، ذاك الوطن الجذع المُعمِّر المُتشبث بتلك الجذور الراسخة في باطن الأرض المظلمة التي غابت عنه زمانًا ومكانًا وأرواحًا أضناها فراقه المرير، ذاك الوطن الضائع من الذاكرة، الوطن الجريح من أهوالٍ أصابته لعقدٍ وأكثر.. أي وطنٍ في دمشق سأعرف جدي إليه من جديد.. وطن الخمسين عامًا من الغياب؟!!.. أم بقايا الوطن الحاضر من الهاربين ذعرًا ورُغمًا بحثًا عن الحياة والعابرين إلى رحمة السماء قهرًا ويأسًا إلا من روح الله.. أم سيكون وطنه فقط ذاكرة طيبة من أزقة حاراتنا وجيراننا وورشته في سوق باب توما ومدحت باشا

من تحف الموزاييك الدمشقي، فيتبعها براحةٍ ورشفة قهوة في بيتنا الدمشقي بحضور بحرتنا وشجرنا وياسميننا والخُزامى ورسائل ثريا.. كان يَعرُب كُل الأوطان التي لا ولن تُهزم ذاكرتها رُغمًا عن كُل الشرور.. ذاكرة الياسمين.. كانت نهايةً جَلية بذاك النور من الإيمان وصبر جدي يعرب، بل كانت بدايةً طيبة المنال بذاك الأمل الذي تحقق في دعوات جدتي وعتبات الياسمين المُنتظرة..

انتهى

مكتبة
t.me/soramnqraa

المعلومات المذكورة في الرواية عن تاريخ دمشق والقدس ونابلس
تم الاستعانة بها من المراجع التاريخية، الويكيبيديا والمقالات

telegram @soramnqraa

رسائل الحب والحرب بين القدس و دمشق

(عنبات الياسمين)

إذاً سَنَعُود من القُدْس إلى دِمَشْق..وَضّبَ حقيبتهُ الصغيرة لِغيابِ أسبوعٍ لا أكثر، فهو لا يقوى على فراق القدس والصلاة في الأقصى ، أخذ كيساً يحمل فيه تراباً من باحة الأقصى ، أوصاني أن أنثره في تراب قبره وقبر ثُريا في دمشق إن شاء القدر أن يكون ختام عمره في مسقط رأسه ، كان وطنه الأكبر ذاك الذي قضاه خمسين عاماً في القدس ، ذاك الوطن الجذع المُعمِّر المُتشبث بتلك الجذور الراسخة في باطن الأرض المظلمة التي غابت عنه زماناً و مكاناً و أرواحاً أضناها فراقه المرير، ذاك الوطن الضائع من الذاكرة، الوطن الجريح من أهوالٍ أصابته لعقدٍ و أكثر..أي وطنٍ في دمشق سأُعرف جدي عليه من جديد..وطن الخمسون عاماً من الغياب ؟!!..أم بقايا الوطن الحاضر من الهاربين ذعراً و رُغماً بحثاً عن الحياة والعابرين لرحمة السماء قهراً ويأساً إلا من روح الله..أم سيكون وطنه فقط ذاكرة طيبة من زقاق حاراتنا وجيراننا و ورشته في سوق باب توما و مدحت باشا من تحف الموزاييك الدمشقي..فيتبعها براحةٍ و رشفة قهوة في بيتنا الدمشقي بحضور بحيرتنا وشجرنا وياسميننا والخُزامى و رسائل ثريا..يَعرُب كان كُل الأوطان التي لا و لن تُهزم ذاكرتها رُغماً عن كُل الشرور.. ذاكرة الياسمين ..كانت نهايةً جَلية بذاك النور من الإيمان وصبر جدي يَعْرُب..بل كانت بدايةً طيبة المنال بذاك الأمل الذي تحقق في دعوات جدتي ثُريا وعتبات الياسمين المُنتَظِرة..

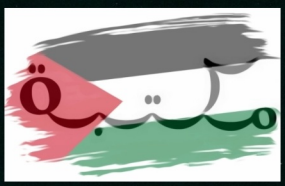

ISBN: 978-614-01-3146-0

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات كوم
www.nwf.com

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com